مِنَ الإِعْجَازِ البَيَانِيّ
فِي سُورَةِ الْكَوْثَرِ
قِرَاءةٌ فِي التَّنَاسُبِ

إعداد

د/ هبة شعبان أحمد حجاج

مدرس البلاغة والنقد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية

للبنات بدمنهور

مِـنَ الإِعْـجَـازِ البَيَـانِـيّ فِـي سُـورَةِ الْكَـوْثَـرِ – قِـرَاءةٌ فِـي التَّنَـاسُـبِ

هبة شعبان أحمد حجاج

قسم البلاغة والنقد / كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات/ دمنهور/ جامعة الأزهر– مصر .

البريد الالكتروني :HebaShaban.team@azhar.edu.eg

Hebahagag2689.el@azhar.edu.eg

ملخص البحث:

ذكر العلماء وجوهًا كثيرة عَلَا بها البيان القرآني على بيان البشر، وسُميت وجوه إعجاز القرآن الكريم، وهي كثيرة لا يمكن أن تُحْصَـــى، **وقد آثرتُ من مظاهر إعجاز القرآن الكريم ذلك التناسب العجيب الذاخر في سوره وآياته.**

وذلك من خلال الوقوف على أقصـــر سُـــوَرِ القرآن الكريم، وهي ســـورة الكوثر التي أعجزت فصحاء العرب عن الإتيان بمثلها، حاولت أن أتدبرها وأدرسها مكتشفة ما فيها من تلاحم وترابط حقيقي يُبَدد الاختلاف الظاهري الذي يبدو للوهلة الأولى بين أجزائها، وقد اخترت ســـورة الكوثر؛ لأنها ثلاث آيات موجزات، فيها الإعجاز والإيجاز، قليلة الألفاظ، كثيرة المعاني.

وقد تناول البحث أوجه التناســـب المختلفة والمتنوعة في الســـورة الكريمة، الداخلية بين آيات السورة ، والخارجية مع غيرها من السور.

الكلمات المفتاحية: الإعجاز – التناسب– الكوثر – المفردات– الأساليب– المطلع– المقطع– الخاتمة.

From the graphic miracle in Surat Al-Kawthar - a reading of proportionality

Heba Shaaban Ahmed Haggag
Department of Rhetoric and Criticism / Faculty of Islamic and Arabic Studies for Girls / Damanhour / Al-Azhar University - Egypt.
E-mail Address: HebaShaban.team@azhar.edu.eg
Hebahagag2689.el@azhar.edu.eg

Abstract:
scholars have mentioned many aspects by which the Qur'anic statement has superiority over the statement of humans, and they have been called the faces of the Holy Qur'an's miracle, and they are many that cannot be counted.
Among the aspects of the Holy Qur'an's miracle, I have chosen the amazing proportionality that is abundant in its surahs and verses.
This is done b by examining the shortest surah of the Holy Qur'an, which is Surat Al-Kawthar, the like of which the eloquent Arabs were unable to come up with. I tried to reflect on it and study it, discovering the true cohesion and interconnectedness in it that dispels the apparent difference that appears at first glance between its parts. I chose Surat Al-Kawthar. Because they are three brief verses, containing miracles and brevity, few words, and many meanings.
The research dealt with the various and diverse aspects of proportionality in the Noble Surah, internal between the verses of the Surah, and external with other surahs.
Key words: The miracle - Proportionality - Kawthar - Vocabulary - Styles - Introduction - Section – Conclusion

مـــقـــدمـــة

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾[الأعـراف: من/٤٣]، الحمد لله الذي أنزل الكتاب على نبيه–صلى الله عليه وسلم– مُتَنَاسِبًا في سُـوَرِهِ وآياته، مُتَلاقيًا في مقاصـده وغاياته، معجزةً دالةً على صِـدْق النبي محمد– صـلى الله عليه وسـلم–، والصـلاة والسـلام على أشـرف خلق الله، سـيدنا محمد بن عبد الله، قدوة الأولين والآخرين، وخاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبـــعـــد ...

فإنَّ كل كلام مهما أطْنَبَ صـــاحبه فيه، تســهل الإحاطة به، والقدرة على الوقوف عليه، وإنهاء البحث فيه مِنْ كلّ جوانبه، إلا كلام الله لا يزيد تِرْداد النظر فيه إلا وقوفًا على سِعَة معانيه، ووفرة أسراره؛ فكلما جَدَّدْتَ لَه قِراءة جَدَّدَ لكَ عطاءً، وليس هذا في جُملة القرآن فحَسْـب؛ بل هو في أقْصَـرِ سُـوَرِهِ التي لو رَامَ الإنسـان الوقوف على أسرار إعجازها لنفدت دونها الأقلام؛ لأن بيان الله عَلَا على كل بيان.

وقد ذكر العلماء وجوهًا كثيرة عَلَا بها البيان القرآني على بيان البشـــر، وسُـــمِّيَت وجوه إعجاز القرآن الكريم، وهي كثيرة عديدة لا يمكن أن تُحْصَـــى، **وقد آثرتُ من وجوه إعجاز القرآن الكريم ذلك التناســـب العجيب الذاخر في سُـــوَرِهِ وآياته**؛ فـ"القرآن كله كالسورة الواحدة" [(١)].

هذا، وقد اعتنى العلماء بالترابط والتناسق بين الآيات والسور، وسمُّوه (علم المناســبات)[(٢)]، وأفاضــوا في إطرائه؛ حيث قال عنه الإمام الســيوطي–رحمه الله

(١) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، جمال الدين ابن هشام، تحقيق: د. مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله، دار الفكر– دمشق، ط٦، /٣٢٨ .

(٢) ينظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشـــي، تحقيق: محمد أبو الفضـــل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربي– عيســى البابي الحلبي وشـركائه، ط١، ١٣٧٦هـ، ١٩٥٧م، (٣٥/١)، ومعترك الأقران، السيوطي، دار الكتب العلمية– بيروت– لبنان، ط١، ١٤٠٨هـ ، ١٩٨٨م، (٦٦/١).

تعالى–: هو "علم شـريف قَلّ اعتناء المفسـرين به لدقته" (١)، ومِن أوْجَز وأعمق ما قِيل فيه ما ذكره الشـيخ محمد دراز؛ حيث قال: " أجل إنك لتقرأ السـورة الطويلة المنجمة يحسـبها الجاهل أضـغاثًا من المعاني حُشِـيَتْ حَشْـوًا، وأوزاعًا من المباني جُمِعَت عفوًا؛ فإذا هي–لو تدبرت– بِنْية متماسكة قد بُنِيَت من المقاصد الكلية على أسسٍ وأصول، وأُقِيمَ على كل أصلٍ منها شعب وفصول، وامتد من كل شعبةٍ منها فروعٌ تقصر أو تطول؛ فلا تزال تنتقل بين أجزائها كما تنتقل بين حجرات وأفنية في بنيانٍ واحدٍ قد وُضِـع رسـمه مرةً واحدةً، لا تحس بشـيءٍ من تناكر الأوضـاع في التقسـيم والتنسـيق، ولا بشـيءٍ من الانفصـال في الخروج من طريقٍ إلى طريقٍ، بل ترى بين الأجناس المختلفة تمام الألفة، كما ترى بين آحاد الجنس الواحد نهاية التضامّ والالتحاق، كل ذلك بغير تكلفة ولا استعانةٍ بأمرٍ من خارج المعاني أنفسها، وإنما هو حُسْن السياقة، ولُطْف التمهيد في مطلع كل غرضٍ ومقطعه وأثنائه، يريك المنفصـل متصـلًا، والمختلف مؤتلفًا" (٢). وقد أردتُ أن أضـرب بسـهم في هذا الميدان، **وذلك بالوقوف على أقصر سُوَرِ القرآن الكريم، وهي سورة الكوثر** التي أعجزت فصـحاء العرب وبلغائهم عن الإتيان بمثلها؛ حاولت أن أتدبرها لأقف على ما فيها من تلاحم وترابط حقيقي، يُبَدّد الاختلاف الظاهري الذي يبدو للوهلة الأولى بين أجزائها؛ وَمِنْ ثَمَّ جاء عنوان البحث: (**مِـنَ الإِعْـجَـازِ البَـيَـانِـيِّ فِـي سُـورَةِ الْـكَـوْثَـرِ – قِـرَاءَةٌ فِـي التَّـنَـاسُـبِ**).

والذي دعاني إلى اختيار هذا البحث أسباب عدة، هي:

١– أهمية علم التناسـب في بيان مقاصـد القرآن، وتدبر معانيه، وتذوق بلاغته، وقد ذكر الإمام الرازي أن: " أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن، (٤٣/١)، وينظر: البرهان في علوم القرآن، (٣٦/١).

(٢) النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم، الشـيخ: محمد عبد الله دراز، اعتنى به: أحمد مصطفى فضلية، قدَّم له: أ. د/ عبد العظيم المطعني، دار القلم ، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م، /١٨٨.

والروابط " [١]؛ فأردت أن أقف على تلك اللطائف من خلال أقصر سورة في القرآن الكريم؛ لتكون خير مثال على الإعجاز.

٢- أن سُوَر القرآن الكريم لم تُرَتَّب حَسْب موضوعاتها، ولا حسب زمن نزولها، إنما للقرآن طريقته المستقلة المخالفة لِمَا هو مألوفٌ عند البشر في الكتب؛ ومع هذا فـــ " ثمة ترابطًا مُحكمًا بين السور والآيات؛ حيث جاءت كل سورة وكل آية في مكانها المناسب بالنسبة إلى ماقبلها وإلى ما بعدها؛ فجاءت عقودًا منتظمة أحسن نظام يكمل بعضها بعضًا " [٢]؛ فأردتُ أن أقفَ على أوجه ارتباط السورة بما قبلها وما بعدها، وعلاقات المعاني التي أَلَّفَت بين السور.

٣- سورة الكوثر هي السورة الخالصة للنبي محمد-صلى الله عليه وسلم- في العهد المدني[٣]؛ فقد جاءت الآيات الثلاث للسورة الكريمة خطابًا موجهًا للنبي محمد صلى الله عليه وسلم، وهو ما لانجده في باقي السور القرآنية؛ فتَاقَت النفس إلى ئثس٤الوقوف على جماليات النظم القرآني في خطاب الحبيب صلى الله عليه وسلم.

٤- سورة الكوثر أَقْصَر سور القرآن الكريم؛ فهي ثلاث آيات بينات موجزات، فيها الإعجاز والإيجاز، قليلة الألفاظ، كثيرة المعاني، وجاء التحدي بالإتيان بأقصر سورة فيه؛ فعجزوا عند نزولها مع كونها تتكون من حروفهم الهجائية، وباللغة التي يعظمونها، ولا يزال التحدي قائمًا، وسيظل كذلك حتى تقوم الساعة.

---

(١) تفسير الرازي= مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ، (١١٠/١٠)، وينظر: البرهان في علوم القرآن، (٣٦/١).

(٢) مراصد المطالع في تناسب المقاطع- بحث في العلاقات بين مطالع سور القرآن وخواتيمها، جلال الدين السيوطي، قرأه وتممه: د/ عبد المحسن بن عبد العزيز العسكر، مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع- الرياض- المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢٦هـ، /١١.

(٣) بعد سورتي الضحى والشرح في العهد المكي.

وقد اقتضت طبيعة الموضوع أن يأتي بعد المقدمة في تمهيد، ومبحثين، وخاتمة.

- **التمهيد: بين يدي السورة الكريمة، ويشمل:**

اسم السورة، ترتيبها، سبب نزولها، مقصد السورة الكريمة.

- **المبحث الأول: التناسب في سياق السورة الداخلي، ويشمل:**

المطلب الأول: التناسب بين اسم السورة وآياتها. **المطلب الثاني:** التناسب الصوتي.

المطلب الثالث: تناسب المفردات. **المطلب الرابع:** تناسب الأساليب.

المطلب الخامس: تناسب المطلع مع المقصد والخاتمة.

- **المبحث الثاني: التناسب في سياق السورة الخارجي، ويشمل:**

المطلب الأول: التناسب بين سورة الكوثر وسورة الماعون.

المطلب الثاني: التناسب بين سورة الكوثر وسورة الكافرون.

المطلب الثالث: تناسب الكوثر مع القلم والضحى والشرح.

هذا، وإن المنهج الذي سِـرْتُ عليه تمثل في إفراد كل صـورة من صـور التناسـب في مطلب خاص، ثم الإتيان بالشـواهد والنماذج التطبيقية التي تؤيد تلك الصورة من جميع آيات السورة الكريمة، مخالفة في ذلك منهج التحليل الأفقي الذي يُعنى بمسـح الآية أفقيًّا من جميع الجهات مرة واحدة؛ ذلك أنَّ وجهة نظري أن المنهج الحالي أكثر وضـوحًا مِن المسح الأفقي، علاوة على أن هذا المنهج يخص كل صورة من صور التناسب منفردة؛ مما يضع عين القارئ من البداية على صور التناسب ظاهرة جليَّة، ولا يضطر للبحث عنها في ثنايا تحليل الآية الكريمة.

على أن هذا المنهج اضـطَّرني إلى التكرار البسـيط في بعض الأمور؛ لأن القضـية تُنَاقَش بأكثر مِنْ اعتبار في أكثر من مبحث؛ كما أن معظم البحث في التناسب يُرَدّ إلى مقصود السورة الكريمة؛ فكل تناسب في المفردات أو الأساليب أو

غيرهما يرتبط بمقصود السورة؛ لذلك أجدني مضطرة إلى التكرار البسيط في بعض الأمور؛ إذ التكرار فرض نفسه عليَّ واقتضاه سياق المقام، ومنهج البحث الحالي.

هذا، وقد سَـــعَيْتُ في هذا البحث أن أقف وقفة تأمل وتدبر مع أســـلوب التناسب باعتباره وجهًا من وجوه إعجاز القرآن الكريم، وبذلت في ذلك جهدي، وإني أرجو أن أكون بِمَ بَذَلْتُ مِنْ جَهْد، قد بلغتُ ما أردت؛ حِرصًـــا على إبلاغ النفع، وأسأل الله الكريم أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

التمهيد: بين يدي السورة الكريمة

ـ اسم السورة:

اشتهرت هذه السورة باسم (**الكوثر**)، قال ابن عاشور: " سُمِّيَت هذه السورة في جميع المصاحف التي رأيناها وفي جميع التفاسير أيضا: سورة الكوثر، وكذلك عَنْوَنَها الترمذي في كتاب التفسير من (جامعه)، وعنونها البخاري في صـــحيحه سورة: إنا أعطيناك الكوثر" [(١)]، ولم يعدها الإمام السيوطي في الإتقان مع السور التي لها أكثر من اسم[(٢)]، وهذا يدل على أنه يرى أن السورة لها اسم واحد هو الكوثر.

(١) التحرير والتنوير= تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الدار التونسية للنشر– تونس، ١٩٨٤هـ، (٣٠/٥٧١).

(٢) ينظر: السابق، (٣٠/٥٧١) .

وقد ذكر الإمام البقاعي اسمين للسورة الكريمة، هما: **الكوثر، والنحر**؛ فقال: "سورة الكوثر، وتسمى النحر" (١)، ووافَقَه الشهاب الخفاجي؛ فقال: سورة الكوثر، وتسمى سورة النحر(٢)، وأرى أن اسم الكوثر أعم وأشمل؛ لأن النحر يندرج تحت الكوثر؛ إذ هو الخير الذي أوتيه النبي–صلى الله عليه وسلم–.

ـ ترتيبها: ترتيب السورة الكريمة في المصحف الشريف الثامنة بعد المائة،" آياتها ثلاث بالإجماع، وكلماتها عشر، وحروفها ثنتان وأَربعون، فواصل آياتها على الرّاءِ، سمّيت سورة الكوثر؛ لذكره فيها" (٣)، " وهي أقصر سُوَر القرآن عدد كلمات، وعدد حروف، وأمَّا في عدد الآيات فسورة العصر، وسورة النصر مثلها، ولكن كلماتهما أكثر" (٤).

ـ سبب نزولها:

هناك روايات عديدة وَرَدت في بيان سبب نزول السورة ومَنْ نزلت فيه، ومن أصحّ تلك الروايات ما روي عن ابن عباس أنها " نزلت في العاص بن وائل، وذلك أنه رأى رسول الله–صلى الله عليه وسلم–يخرج من المسجد وهو يدخل؛ فالتقيا عند باب بني سهم، وتحدثا وأناس من صناديد قريش في المسجد جُلوس؛ فلما دخل العاص قالوا له: مَنْ الذي كنت تُحدث؟ قال: ذاك الأبتر، يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان قد توفي قبل ذلك عبد الله ابن الرسول–صلى الله

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، الإمام البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (٢٨٧/٢٢). وينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني= تفسير الألوسي، تحقيق:علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية– بيروت، ط١، ١٤١٥هـ، (٤٧٨/١٥).

(٢) حاشيه الشهاب علي تفسير البيضاوي=عنايه القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي، دار صادر– بيروت، (٤٠١/٨).

(٣) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى، تحقيق: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية– لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، (٥٤٧/١).

(٤) التحرير والتنوير، (٥٧٢/٣٠).

عليه وسلم– وكان من خديجة، وكانوا يسمون مَنْ ليس له ابن: أبتر؛ فأنـــزل الله تعالى هذه السورة" [١].

وهناك روايات أخرى عديدة وردت فيمن نزلت فيه هذه السورة [٢]، كلٌّ يرى شخصًا بعينه نزلت فيه، وأصح تلك الروايات هي ما ذكَرْت أنها نزلت في العاص بن وائل السهمي.

على أنه يمكن أن يقال: إن السورة ربما تكون عامة ليست لشخص بعينه كما ذكر الطبري؛ حيث قال رحمه الله بعد ذِكْرِه لبعض الأقوال التي تحدثت عمن نزلت فيه الســـورة: " وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصـــواب أن يقال: إن الله–

---

(١) أسـباب نزول القرآن، أبو الحسـن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسـابوري، تحقيق: كمال بســـيوني زغلول، دار الكتب العلمية– بيروت، ط١، ١٤١١ هـ، /٤٩٤، وينظر: لباب النقول في أسباب النزول، جلال الدين السيوطي، ضبطه وصححه: أحمد عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، (٢١٧/١) .

(٢) اختلف المفســـرون في مَنْ هو المراد في قوله تعالى:﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ ؛ فقيل: هو العاص بن وائل الســـهمي، قاله ابن عباس، وســـعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة. زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي– بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ، (٤٩٨/٤)، وينظر: تفسير الطبري=جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ ،٢٠٠٠م، (٦٥٧/٢٤)، وتفسير الماوردي= النكت والعيون، تحقيق: السـيد ابن عبد المقصـود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية– بيروت–لبنان، (٣٥٦/٦)، وتفســـير القرطبي= الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصـــرية– القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ،١٩٦٤م، (٢٢٢/٢٠). وقيل: هو أبو جهل في رواية عن ابن عباس أيضا. ينظر: تفسير الماوردي،(٣٥٦/٦)، وزاد المسير،(٤٩٨/٤)=
= وتفســـير القرطبي،(٢٢٢/٢٠). وقيل: هو أبو لهب، قاله عطاء. ينظر: تفســـير الماروردي، (٣٥٦/٦)، وزاد المســـير، (٤٩٨/٤). وقيل: هو عقبة بن أبي معيط، قاله شـــمر بن عطية. ينظر: تفسـير الطبري، (٦٥٧/٢٤)، وزاد المسـير، (٤٩٨/٤)، وتفسـير القرطبي، (٢٢٣/٢٠). وقيل: عني جماعة من قريش، قاله عكرمة. ينظر: تفســير الطبري،(٦٥٧/٢٤)، وزاد المســير، (٤٩٨/٤)، وتفسير القرطبي، (٢٢٣/٢٠).

تعالى– أخبر أن مبغض رسـول الله –صـلى الله عليه وسـلم– هو الأقل الأذلّ المنقطع عقبه، فذلك صـفة كل من أبغضـه من الناس، وإن كانت الآية نزلت في شخص بعينه" [١].

واختلف المفسـرون في هل هي مكيَّة أم مدنيَّة؟ فقيل: إنها " مكيَّة في المشـهور وقول الجمهور" [٢]، وقيل: إنها مدنية[٣]، وهو الصـواب كما ذكره الأكثرون[٤]؛ لِمَا راوه مسـلم في صـحيحه عن أنس بن مالك قال: بينا رسـول الله

---

(١) تفسير الطبري، (٦٥٨/٢٤) .

(٢) البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر– بيروت، ١٤٢٠ هـ، (٥٥٥/١٠)، وينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل= تفسير الزمخشري، دار الكتاب العربي – بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ، (٨٠٦/٤)، والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز= تفسير بن عطية، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية– بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ، (٥٢٩/٥)، وزاد المسير، (٤/ ٤٩٧)، والبرهان في علوم القرآن، الإمام الزركشي، (١٩٣/١)، وفتح القدير، الإمام الشوكاني، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب– دمشق، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ، (٦١٤/٥)، وروح المعاني، (٤٧٨/١٥).

(٣) ينظر: زاد المسير في علم التفسير، (٤٩٧/٤)، والبحر المحيط في التفسير (٥٥٥/١٠)، والإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٤هـ، ١٩٧٤م، (٥٥/١)، وفتح القدير، للشوكاني(٦١٤/٥)، وتفسير الألوسي= روح المعاني (٤٧٨/١٥).

(٤) واستدلوا بحديث لفظ مسلم قال: " بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا في المسجد، إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسما، قلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: " أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنفا سورة"، فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم {إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر إن شانئك هو الأبتر} ثم قال: " أتدرون ما الكوثر؟ " قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: " فإنه نهر وعدنيه ربي، عز وجل، عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم؛ فيختلج العبد منهم، فأقول: رب إنه من أمتي، فيقول: إنك لا تدري ما أحدث بعدك". قال ابن كثير بعد أن ذكر الحديث: "وقد استدل به كثير من القراء على أن هذه السورة مدنية". تفسير ابن كثير،(٤٩٨/٨).

صلى الله عليه وسلم ذات يوم بين ظهرنا ..... إلخ الحديث)[١]، والشاهد في ذلك أن أنس بن مالك–رضي الله عنه– لم يلق الرسول صلى الله عليه وسلم بمكة، وإنما لقيه في المدينة وخدمه بها.

وقال السيوطي: " الصواب أنها مدنية، ورجَّحَه النووي في شرح مسلم لِمَا أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ عن أنس قال: "بينا رسول الله صلى الله عليه وَسَلَّمَ بَيْنَ أَظْهُرِنَا إِذْ أَغْفَى إغفاءة فرفع رأسه متبسما فَقَالَ: أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفًا سُورَةٌ فَقَرَأَ: {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ} حَتَّى خَتَمَهَا ... الْحَدِيثَ" [٢].

وقد ذكر الإمام ابن عاشور هذا الخلاف وحلله تحليلا صائبًا؛ حيث قال: "تعارضت الأقوال والآثار في أنها مكية أو مدنية تعارضًا شديدًا؛ فهي مكية عند الجمهور واقتصر عليه أكثر المفسرين، ونقل الخفاجي عن كتاب النشر قال: أجمع من نعرفه على أنها مكية، قال الخفاجي: وفيه نظر مع وجود الاختلاف فيها، وعن الحسن ومجاهد وقتادة وعكرمة هي مدنية، يشهد لهم ما في صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه وقال: أنزلت عليَّ آنفا سورة، وقرأ ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ۝٣﴾[الكوثر:١-٣]، ثم قال: أتدرون ماالكوثر؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل عليه خير كثير هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة ... الحديث، وأنس أسلم في صدر الهجرة؛ فإذا كان لفظ (آنفا) في كلام النبي صلى الله عليه وسلم مستعملًا في

---

(١) سَبَق نص ذكر الحديث كاملًا في الهامش السابق. أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب (الصلاة)، باب: (حجة مَنْ قال البسملة آية من أول كل سورة سوى سورة براءة)، حديث رقم(٤٠٠)، صحيح مسلم، الإمام: مسلم ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، (د. ت)، (١/٣٠٠).

(٢) الإتقان، للسيوطي، (١/٥٥)، ونقله الألوسي في تفسيره عن السيوطي. ينظر: تفسير الألوسي= روح المعاني، (١٥/ ٤٧٨).

ظاهر معناه وهو الزمن القريب؛ فالســورة نزلت منذ وقت قريب من حصــول تلك الرؤيا...ومقتضــى ما يروى في تفسـير قوله تعالى:﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾ أن تكون السـورة مكية، ومقتضــى ظاهر تفسـير قوله تعالى:﴿وَٱنْحَرْ﴾ من أن النحر في الحج أو يوم الأضحى تكون السورة مدنية، ويبعث على أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾ ليس ردا على كلام العاصي بن وائل كما سنبين ذلك، والأظهر أن هذه السورة مدنية، وعلى هذا سنعتمد في تفسير آياتها" (١).

_ مقصد السورة الكريمة:

المقصود الرئيسي لأي سورة في النظم القرآني هو " مفتاح خزائن كل سورة من لطائف المعاني، ورقائقها وحقائقها؛ لأنه المهيمن على كل عنصر من عناصر البيان في السورة" (٢).

ثم إن مطلع كل سورة يُنبئ عن مقصودها، يقول أ.د/ محمود توفيق محمد سـعد: " والعناية بتأويل مطلع السـورة ودلالته على مقصـودها الأعظم، معدنه أن الإيمان بأن السـورة القرآنية قائمة من معنى كلي مهيمن على مكونات السـورة كلها وأن في مفتتح السـورة ما يهدي إلى مكنونها من المعاني، وهذا المنهاج في التأويل هو من أصـول النظر العربي في فقه البيان" (٣)، وكذلك اسـم كل سـورة ينبئ عن المقصـود، يقول الإمام البقاعي: " اسـم كل سـورة مترجم عن مقصـودها؛ لأن اسـم كل شـيء تظهر المناسـبة بينه وبين مسـماه، عنوانه الدال إجمالًا على تفصـيل ما فيه " (٤).

---

(١) التحرير والتنوير، (٣٠/٥٧١).

(٢) العزف على أنوار الذكر– معالم الطريق إلى فقه المعنى القرآني في سياق السورة، د: محمود توفيق محمد سعد، مكتبة وهبة، ط١، ١٤٢٤هـ، /٩٣.

(٣) الإمام البقاعي ومنهاجه في تأويل بلاغة القرآن، د: محمود توفيق محمد سـعد، مكتبة وهبة، ط١، ١٤٢٤هـ، /٢٣٢.

(٤) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (١/١١٨).

وبالرجوع إلى المطلع ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ ﴾، وبالنظر في اسم السورة **(الكوثر)** تبين أن مقصد السورة الكريمة هو بيان المِنَن الإلهية والنعم الربانية، وفضل الله العظيم على نبيه الكريم بإعطائه الخير الكثير، والنعم العظيمة في الدنيا والآخرة، ومنها: نهر الكوثر؛ ليكون وسيلة للرد على جميع السفهاء الذين يقولون: إن النبي صلى الله عليه وسلم- أبتر، قال الفيروزآبادي: " معظم مقصود السورة بيان المنة على سيد المرسلين، وأمره بالصلاة والقربان، وإخباره بإهلاك أعدائه أهل الخيبة والخذلان" (١).

هذا، وقد أوجز الإمام البقاعي موضوع السورة؛ فقال رحمه الله تعالى: "مقصودها المِنْحَة بكل خير يمكن أن يكون" (٢)؛ فالسورة جاءت بآياتها الثلاث لتحقق موضوعًا واحدًا هو الخير الكوثر-الكثير- لصاحب الكوثر صلى الله عليه وسلم، والانتصار له صلى الله عليه وسلم بإعطائه الخير الكثير في الدنيا والآخرة، ثم فصَّل الإمام البقاعي مقصود السورة فقال: " وقد عُلِم أن حاصل هذه السورة المَنّ عليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالخير العظيم، الذي من جُمْلته النهر المادّ من الجنة في المحشر المورود لمن اتبعه، الممنوع ممن تأبى عنه وقطعه، وأمره بالصلاة والنحر للتوسعة على المحاويج، والبشارة بقطع دابر أعدائه ونصر جماعة أوليائه" (٣).

وقد دَعَتْ تلك النعم الرسول-صلى الله عليه وسلم- إلى إدامة الصلاة، ونحر الهدي شكرا لله؛ فاشتملت على بشارة النبي -صلى الله علي وسلم- بأنه أعطي الخير الكثير في الدنيا والآخره، وأمره أن يشكر الله على ذلك بالإقبال على العبادة؛ قائلًا: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢ ﴾ .

---

(١) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، (٥٤٧/١) .

(٢) نظم الدرر، للبقاعي، (٢٨٧/٢٢) .

(٣) السابق، (٢٩٣/٢٢) .

المبحث الأول:

التناسب في سياق السورة الداخلي،

ويشمل:

المطلب الأول: التناسب بين اسم السورة وآياتها.

المطلب الثاني: التناسب الصوتي .

المطلب الثالث: تناسب المفردات.

المطلب الرابع: تناسب الأساليب .

المطلب الخامس: تناسب المطلع مع المقصد والخاتمة.

المطلب الأول: التناسب بين اسم السورة وآياتها:

جاءت تلك السورة الكريمة تؤكد أن الله –تعالى– مَنَّ على نبيه الكريم بعطاء الكوثر، والكوثر هو نهر في الجنة على المشهور؛ فمحور السورة هو هذا النهر الكوثر؛ ومِنْ ثَمَّ سُمِّيَت السورة به.

وسأحاول في السطور القادمة الوقوف على التناسب بين هذا النهر الكوثر، وبين آيات السورة الكريمة التي ذَكَرت الكوثر صراحة في الآية الأولى، ثم في الآية الثانية جاء ذِكْر الصلاة والنحر، وفي ختام السورة تحدثت عن المُبْغض الأبتر.

وإذا كانت العلاقة ظاهرة بين الآية الأولى وعنوان السورة؛ فما العلاقة بين كل من الصلاة، والنحر، والمبغض الأبتر بنهر الكوثر؟

ولكي نحاول الربط بين الآيات وبين نهر الكوثر لا بد أن نقف عند تعريف النهر؛ فالنهر: ماء جار متدفق ينحدر من مكان عال الى مكان منخفض، وهذا المفهوم تحقَّق في الآيات الثلاثة للسورة الكريمة.

فبالنظر نرى أن مفهوم النهر قد تحقَّق في المطلع ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١﴾؛ فالنهر انحدار من أعلى إلى أدنى، وكذا العطاء هنا؛ عطاء من أعلى إلى أدنى (بالنسبة إلى مقام الله عز وجل)؛ فالأعلى هنا هو الله سبحانه وتعالى المشار إليه بقوله:﴿إِنَّآ﴾، والأدنى هو رسول الله–صلى الله عليه وسلم– المشار إليه بكاف الخطاب﴿أَعۡطَيۡنَٰكَ﴾؛ فإذا قيل: كيف يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم أدنى؟ يكون الجواب: إنَّ الخلق كلهم في المكان الأدنى بالنسبة إلى الله العلي الأعلى؛ فالحديث هنا بالنسبة إلى مقام الله–عز وجل– لا مقام البشر، وإلا إذا كان الحديث عن البشر فمقام رسولنا الكريم أعلى مقام في البشرية جمعاء، ومنزلته لا تضاهيها منزلة كونه من البشر؛ فكما أن النهر انحدار من الأعلى إلى الأدنى؛ فالعطاء هنا جاء من الله الأعلى إلى الرسول الكريم.

ثم نجد أن مفهوم النهر قد تحقق أيضـا في واسـطة السـورة الكريمة: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ ﴾، وبيان ذلك أنه لمَّا كانت الصـلاة طهارة مادية ومعنوية، والمادية تكون بالتطهر من النجاسات المعروفة، ثم الوضوء الذي يكون بالماء، ولقد بَيَّنَ الرسول –صلى الله عليه وسلم– بصريح الألفاظ ارتباط فكرة النهر بالصـلاة في الحديث الشـريف المتفق عليه ؛ حيث قال: " أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمسًا، هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا: لا يبقى من درنه شيء، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا" (١).

أما ارتباط فكرة النهر بنحر الأضـحية أي: ذبحها؛ فتتجلى بطريقة غير مباشرة؛ إذ النحر هو: إسالة الدم الجاري في عروق الجسم، والدم ما هو إلا نهر يتدفق في الشرايين يغذيها بالطعام والأكسجين، وكذلك فإن من الأنهار ما يَرْوِي الأشـجار بما يتدفق فيها من الماء وينقل لها الأغذية، ومن العلاقة بين النهر والنحر أيضـا أن النحر تطهير معنوي للنفس من الشُـحّ، وكذلك الدم من وظائفه داخل الجسم تطهير الجسم من السموم؛ فكلاهما تطهير وتزكية للنفس والجسد.

أمَّا تحقق مفهوم النهر في ختام السورة ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ ؛ فالأبتر هو الذي مات جميع أولاده الذكور ولم يخلفوا ذكورا، وبذلك ينقطع ذكره من بعده؛ فلا تنتقل أخباره عبر الزمان؛ ذلك لأن الزمن هو وسـيلة نقل أخبار الناس؛ فالزمان يجري ناقلا على ألسنة الناس أخبارهم وأفعالهم وما يستحقونه من حمد وثناء أو ذم ونقد، وكذلك فإن النهر يجري وينقل إلى النباتات أغذيتها ويرويها

(١) حديث صحيح متفق عليه، أخرجه الإمام مسلم في كتاب: (المساجد)، باب: (المشي إلى الصـلاة تمحى بها الخطايا)، حديث رقم: (٦٦٧)، (٤٦٢/١). وأخرجه الإمام البخاري في صـحيحه، كتاب (مواقيت الصـلاة)، باب: (الصـلوات الخمس)، حديث رقم(٥٢٨)، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ، (١١٢/١) .

بالماء؛ فتحيا وتستمر على وجه الأرض مدة من الزمن ، كما يُحْيِي الزمان أخبار الناس سلبية كانت أو إيجابية.

والآية الكريمة الأخيرة في السورة تقرر صراحة أن مُبغض رسول الله وشانئه هو الذي انقطع ذكره بالخير؛ فإنها تقرر ضمنا أن الرسول صلى الله عليه وسلم ذكره باقٍ، واسمه مخلد، وسيرته العطرة ستبقى بالحمد والثناء ولن ينقطع له ذكر؛ فسينقل نهر الزمان تلك السيرة العطرة من جيل إلى جيل؛ ليغذي بذكره صلى الله عليه وسلم النفوس والقلوب، وينقطع نهر الزمان عن ذكر مبغض رسول الله؛ لأنه الأبتر.

وهكذا يتجلى لنا كيف ارتبطت آيات السورة الكريمة بفكرة النهر ارتباطًا منسجما، رغم اختلاف معانيها اختلافًا ظاهريًّا.

هذا عن ارتباط آيات السورة جميعها بمحور السورة وهو نهر الكوثر، أي العطاء الذي بُشِّر به النبي في السورة الكريمة، **أمَّا ارتباط آيات السورة بعضها ببعض، وتناسب الآيات الثلاث وتناسقها مع بعضها بعيدًا عن ارتباطها بالنهر؛ فيتجلى في السطور الآتية:**

إن من تمام التناسب في السورة الكريمة أن صُدِّرَت المِنَن بالعطاء الكوثر، وخُتِمَت المِنَنُ ببتر الشانئ، كما أن من تمام التناسب أن كان عطاء الكوثر جزاؤه الأمر بالصلاة، وعطاء بتر الشانئ جزاؤه النحر، وإن كانا يجوز أن يكونا (الصلاة والنحر) جزاءً للعطائين معًا.

لمَّا كانت مِنَّة الله في المطلع منة عظيمة جليلة لا تعادلها أي مِنَّة، ناسب ذلك أن يكون شُكر تلك المنة عن طريق الصلاة التي هي أعظم أركان الإسلام، والتي هي عماد الدين، ولا تُقْبل أفعال دون صلاة؛ لأنها الركن الركين في الإسلام، وهي حديث المسلم مع رب العزة؛ فأي شرف هذا وأي تكريم هذا؛ لذا ناسب ذلك أن تكون الصلاة هي المأمورة بها عقب عطاء الكوثر الوافر العظيم.

ثم إن المنة الثانية التي تتمثل في بتر شانئ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– مِنَّة يدخل فيها جزء دنيوي وليست أخروية بالكلية؛ ولذا ناسبها أن يكون جزاؤها النحر؛ لكونه عبادة فيها جزء دنيوي، كما أن له ارتباطًا بوجود مال حتى يتمكن المرء من القيام به.

هذا، ونلاحظ أن هناك تناسبًا خاصًّا بين الآيتين الأخيرتين، وهو بين النحر والبتر؛ فالنحر قطع لشرايين الأضحية، والبتر قطع لذكر مبغض رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهكذا يتجلى لنا كيف ارتبطت وتناسبت آيات السورة الكريمة تناسبًا يؤكد أن هذا الكتاب الحكيم تنزيل من رب العالمين؛ فقد تجلَّى التناسب والترابط بين آيات السورة جميعها رغم الاختلاف الظاهري للآيات الذي يبدو للناظر غير المدقق؛ فسبحان الله العظيم .

* * *

المطلب الثاني: التناسب الصوتي:

وأعني به مناسبة الحروف الواردة في السورة مع مقصود السورة والمعاني الواردة فيها، أي أن اللفظة تتألف من حروف تدل أصواتها على معناها، وقد عُرِفَ عند الأقدمين بالمشاكلة، أو الحكاية الصوتية، وقد أشار ابن جني(ت٣٩٢هـ) إلى هذه الظاهرة في مواطن عدة مِنْ كتابه الخصائص، وأفْرَدَ لها أبوابًا منها: (تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني)، أي: تعاقب الألفاظ لتعاقب المعاني، و(إمساس الألفاظ أشباه المعاني)، يقول ابن جني: " فكلما ازدادت العبارة شبهًا بالمعنى، كانت أدلّ عليه وأشهد بالغرض فيه" [1].

(١) الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٤، (١٥٦/٢).

وقد اعتنى القرآن الكريم بجرس وصوت المفردة اعتناءه بمعناها، وهو لذلك يتخير المفردات تخيرًا يقوم على أساس مِنْ تحقيق الأصوات المتسقة مع الآية والسياق، بل والسورة كلها في كثير مِن الأحيان، وبخاصة تلك السُوَر القِصَار، وهذه السُوَر التي ما أن سَمع بعضها الوليد بن المغيرة(١)حتى قال قولته المشهورة(٢).

(١) الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن مخزوم، وكان يُكَنَّى أبا عبد شمس، يقال له: الْعِدْلُ؛ لِأَنَّهُ كَانَ عِدْلَ قُرَيْشٍ كُلِّهَا، وهو من قُضاة العرب في الجاهلية، ومن زعماء قريش ومن زنادقتها، أدرك الإسلام وهو شيخ هَرِم فعَادَاه وقاوم دعوته، ذكره ابن الأثير في الكامل تحت عنوان: (ذِكْر المستهزئين ومَنْ كان أشد الأذى للنبي–صلى الله عليه وسلم–)، وهو والد خالد بن الوليد، هَلَك بعد الهجرة بثلاثة أشهر وهو ابن خمس وتسعين سنة، ودفن بالحجون، وَكَانَ مَرَّ بِرَجُلٍ مِنْ خُزَاعَةَ يَرِيشُ نَبْلًا لَهُ فَوَطِئَ عَلَى سَهْمٍ مِنْهَا فَخَدَشَهُ، ثُمَّ أَوْمَأَ جِبْرَائِيلُ إِلَى ذَلِكَ الْخَدْشِ بِيَدِهِ فَانْتَقَضَ وَمَاتَ مِنْهُ، فَأَوْصَى إِلَى بَنِيهِ أَنْ يَأْخُذُوا دِيَتَهُ مِنْ خُزَاعَةَ، فَأَعْطَتْ خُزَاعَةُ دِيَتَهُ. ينظر: الكامل في التاريخ، ابن الأثير، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت–لبنان، ط١، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م، (٦٦٨/١، ٦٦٩)، والأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي، دار العلم للملايين، ط١٥– أيار/ مايو ٢٠٠٢م، (١٢٢/٨).

(٢) " والله لقد نظرت فيما قال هذا الرجل؛ فإذا هو ليس بشعر، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمعذق–(أي له شعب وجذور، وفي بعض المصادر (لمغدق) وهو من الغدق أي: الماء الكثير، وفي بعضها الآخر: (لعذق) والعذق هو النخلة، وهو استعارة من= =النخلة التي ثبت أصلها)–، وإنه ليعلو وما يعلى عليه". ورد باختلاف في لفظه في: دلائل النبوة؛ فجاء بهذا اللفظ: " مَاذَا أَقُولُ فوالله مَا فِيكُمْ رَجُلٌ أَعْلَمَ بِالْأَشْعَارِ مِنِّي، وَلَا أَعْلَمَ بِرَجَزِهِ وَلَا بِقَصِيدَتِهِ مِنِّي، وَلَا بِأَشْعَارِ الْجِنِّ، وَاللهِ مَا يُشْبِهُ الَّذِي يَقُولُ شَيْئًا مِنْ هَذَا، ووالله إِنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي يَقُولُ حَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً وَإِنَّهُ لَمُثْمِرٌ أَعْلَاهُ، مُغْدِقٌ أَسْفَلُهُ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَمَا يُعْلَا، وَأَنَّهُ لَيَحْطِمُ مَا تَحْتَهُ ". دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، أبو بكر البيهقي، دار الكتب العلمية–بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ، (١٩٨/٢)، وورد بلفظ دلائل النبوة نفسه في تاريخ الإسلام، ينظر: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان

ومن وجوه إعجاز القرآن الكريم أنْ جاءت الألفاظ متلبسة بأصوات الحروف على سِـمْت الأحداث المُعَبَّر عنها، يقول الرافعي: " لا جَرَم أنَّ المعنى الواحد يُعبَّر عنه بألفاظ لا يجزي واحد منها في موضـــعه عن الآخر...؛ لأن لكل لفظ صـــوتًا ربما أشـــبه موقعه من الكلام ومن طبيعة المعنى الذي هو فيه، والذي تُســـاق له الجملة" [1]، وقد وُظِّف صـــوت المفردة توظيفًا دقيقًا كتوظيف المفردة والتركيب؛ فجاءت أصوات حروف المفردة القرآنية دالة دلالة بالغة على المعاني.

وسوف أقف في السطور القادمة عند أصوات حروف سورة الكوثر؛ لنرى كيف حقَّق النظم القرآني مِنْ خلالها التناسب بين أصوات حروفها والمعاني التي اشتملت عليها السورة الكريمة.

ـ أولا: تناسب حروف السورة مع السياق والمقصود:

على مستوى مساحة السورة نرى **الغلبة لصوت الألف** بوروده سبع مرات، منها مرة جاء رسمه مخالف للكتابة العادية في المفردة ﴿ أَعْطَيْنَاكَ ﴾، يَلِيه **صوت الهمزة والنون** بخمس مرات لكل منهما، **والكاف، واللام، والراء** بأربع مرات لكل منها، ثم تأتي بقية الأصـــوات بالتنازل كصـــوت **الواو** ثلاث مرات، **والباء** مرتين، وأخيرًا أصـــوات وردت مرة واحدة وهي: **العين، والطاء، والياء، والثاء، والفاء، والصاد، والحاء، والشين، والهاء، والتاء.**

بن قَايْماز الذهبي، تحقيق: عمر عبد الســـلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٤١٣هـ،١٩٩٣م، (١/١٥٥)، وأخرجه الحاكم النيسابوري في مستدركه، عن ابن عباس، وقال: "هذا حديث صـــحيح الإسـناد على شـرط البخاري ولم يخرجاه"، المسـتدرك على الصـــحيحين، المؤلف: أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضـــبي الطهماني النيســـابوري المعروف بابن البيع، تحقيق: مصـــطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤١١، ١٩٩٠، (٢/٥٥٠).

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي– بيروت، ط٨، ١٤٢٥ هـ ، ٢٠٠٥ م، /١٥٥.

وبالنظر يتبين أن كِبر مساحة حرف الألف في السورة الكريمة يتناسب مع حجم العطاء الممنوح في السورة؛ فالألف بامتدادها وإطلاقها تشير إلى امتداد العطاء؛ لأنها حرف رخو قابل للمط والتطويل، وهذا التطويل يناسب العطاء الوافر، علاوة على كونها حرف مجهور قوي يشير إلى كثرة العطاء، وقوة المُعْطَى والمُعْطِي، ومن صفات الألف أيضا أنها حرف منفتح لا إطباق فيها؛ فلا ينحصر صوتها بين طرف اللسان وأقصاه، وهذا يدل على عدم حصر العطاء وتحديده، وإنما جعله عطاء لا حدَّ له؛ لذا يمكن القول: إن غلبة ورود حرف الألف دون غيره في السورة الكريمة مِنْ تمام التناسب؛ لِمَا يتصف به هذا الحرف من صفات تتناسب مع عطاء الله–عز وجل– لنبيه صلى الله عليه وسلم.

وبالنظر يتبين أنَّ أغلب الحروف التي وردت مرة واحدة تجمع بين صفات الهمس، والرخاوة ، والاستفال، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر **(الثاء، والفاء، الحاء، والشين، والهاء)** ولا شك أن هذه الصفات تنبئ عن الهدوء والضعف، وليست في قوة الحروف الأخرى التي تكرر ذكرها، ولعل ورودها مرة واحدة يتناسب مع عدم إرادة تقنين العطاء وجعله محدودا؛ فجاءت الحروف ذات الصفات التي ليست قوية مرة واحدة لتتناسب مع قوة العطاء ووفرته وقوة المعطي والمعطى.

وبين غلبة تكرار حروف، ومجيء حروف مرة واحدة تأتي بعض حروف يتراوح حضورها في السورة الكريمة بين الأربع مرات، والثلاث، والاثنين؛ فمن الحروف التي وَرَدَت أربع مرات **(الكاف، واللام ، والراء)** وهي عدد مرات ليست بالقليلة أو الكثيرة، وبالنظر يتبين أن صفاتها تتراوح بين الهمس والجهر، والشدة والبينة، وتتفق جميعها في كونها مستفلة منفتحة، وتنفرد الراء بصفة التكرار وسيأتي بيانها تفصيلًا في الحديث عن فاصلة السورة الكريمة.

وتطالعنا الواو بورودها في السورة الكريمة ثلاث مرات، وهي تشترك مع معظم حروف السورة في صفات (الجهر، والرخاوة، والاستفال والانفتاح) لكنها

تمتاز عن جميع حروف السـورة باتصـافها بصـفة اللين، تلك الصـفة التي كان وجودها في سـياق السـورة الكريمة أمرا ضـروريا، لبيان أن النبي الكريم صـلى الله عليه وسـلم مع ما نَعَتَه به هذا الأبتر إلا أنه لم يكن فظًّا أو غليظًا في المعاملة، وإنما كان ليّن الطباع هادئًا، قَابَلَ عطاء ربه بقلب مطمئن وثقة كبيرة في وعد الله- عز وجل-، وعدم تجبر أو طغيان على أحد.

ومن الحروف التي وردت مرتين (الباء)، وقلة ورودها يتناسب مع السورة؛ إذ إنها حرف انفجاري يُحْدِثُ قلقلة عند النطق به، ومن ثم ورد بقلة في السـورة الكريمة؛ لأن مقصد السورة هو بث الطمأنينة في قلب النبي-صلى الله عليه وسلم- ، وتبشـيره بالعطاء الكوثر، والباء بما فيها من انفجار وقلقلة لا حاجة لها في هذا السياق، ومن ثَمَّ كان قلة ورودها من تمام التناسب مع مقصود السورة الكريمة.

ـ ثانيًا: تناسب الفاصلة مع مقصود السورة:

بالنظر يتبين أن فاصلة السورة جاءت موحدة في آيات السورة جميعها؛ إذ بُنِيَت على حرف الراء، والسـؤال المطروح أولًا: **لماذا اختير صـوت الراء مِنْ بين الأصوات وجُعِل صَوتًا للفاصلة القرآنية للسورة؟ وهل لهذا الصوت سر خفي في بَلْوَرة معاني الخطاب داخل السورة؟**

وللإجابة على ذلك يلزم معرفة صـفات حرف (الرّاء)، يدل صـوت حرف (الرّاء) على دلالات متضـادة؛ فهو يمتاز بصـفات تدل على القوة أحيانًا، وصـفات تدل على الضعف أحيانًا أخرى، وصفات تتوسط بينهما؛ فمِن الصفات القوية التي يتصـف بهـا حرف (الراء) أنـه من الحروف المجهورة، والجهر يُعرّفـه سـيبويه(ت١٨٠هـ) بقوله: " حرفٌ أُشـبع الاعتماد في موضـعه، ومنع النفس أن يجري معه حتى ينقضـي الاعتماد عليه ويجري الصـوت" [(١)]، والجهر هو منبع

(١) الكتاب، سـيبويه، تحقيق: عبد السـلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م، (٤٣٤/٤)، وينظر: سـر صـناعة الإعراب، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط١، ١٤٢١هـ ، ٢٠٠٠م، (٧٥/١).

النفس عند النطق بالصوت؛ لقوة الاعتماد عليه في المخرج؛ فهو من صفات القوة، ونقيض الجهر: الهمس.

كما يعد صوت الراء من أصوات التوسط، وتشتهر هذه الأصوات بالمتوسطة[١]؛ إذ هي" ليست شديدة أي لا يُسْمَع معها انفجار، ولا رخوة فلا يكاد يسمع لها ذلك الحفيف الذي تتميز به الأصوات الرخوة، ولذلك عدَّها القدماء من الأصوات المتوسطة بين الشدة والرخاوة" [٢]، وسُمِيَت بالأصوات المائعة.

هذا، ولحرف (**الراء**) سِمَة اشتُهِر بها وتميزه عن سائر الحروف، وهي صفة التكرير؛ إذ لا يشاركه في تلك الصفة حرف سِوَاه، وتولدت تلك الصفة من الموضع الرئيسي لنطق صوت الراء وهو اللثة؛ ذلك لأن صوت الراء يتم عَبْر تتابع طرقات طرف اللسان على اللثة تتابعًا سريعًا، ومن هذا المنطلق سمي بالمُكَرّر.

يقول سيبويه: "ومنها المُكَرّر، وهي حرف شديد يجري فيه الصوت لتكريره وانحرافه إلى اللام... وهو الراء" [٣]، ويقول ابن جني (ت ٣٩٢هـ): "ومنها المكرر، وهو الراء، وذلك أنك إذا وقفت عليه رأيت طرف اللسان يتعثر بما فيه من التكرير، ولذلك احتسب في الإمالة بحرفين" [٤]؛ فـ" يُقَال لها الحرف المكرر؛ لأنك إذا نطقت بها كنت كأنك ناطق بحرفين، براءين" [٥].

---

(١) وتعتبر صفة الإذلاق من الصفات المتوسطة – أي: بين القوة والضعف– التي يتصف بها حرف الراء، وحروف الذلاقة ستة، هي: " اللام، والراء، والنون، والفاء، والباء، والميم؛ لأنه يعتمد عليها بذلق اللسان، وهو صدره وطرفه". سر صناعة الإعراب (٧٨/١). ومن صفات الضعف التي يتصف بها حرف الراء: الاستفال، والانفتاح، والترقيق.

(٢) الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، مطبعة الأنجلو المصرية، ط٥ ، ١٩٧٥م ،/٦٤.

(٣) الكتاب، سيبويه، (٤٣٥/٤).

(٤) سر صناعة الإعراب، (٧٧/١).

(٥) الإبانة في اللغة العربية، سَلَمة بن مُسْلِم العَوْتبي الصُحاري، تحقيق: د. عبد الكريم خليفة، د. نصرت عبد الرحمن، د. صلاح جرار، د. محمد حسن عواد، د. جاسر أبو صفية، وزارة التراث القومي والثقافة– مسقط – سلطنة عمان، ط١، ١٤٢٠ هـ ،١٩٩٩م، (٨٥/١).

ويقول د/ إبراهيم أنيس: " والراء صوت مكرر؛ لأن التقاء طرف اللسان بحافة الحنك مما يلي الثنايا العليا يتكرر النطق بها، كأنما يطرق طرف اللسان حافة الحنك طرقا لينًا يَسِيرًا مرتين أو ثلاثًا لتتكون الراء العربية" (١).

وبعد بيان صفات حرف الراء الذي خُتِمَت به فاصلة السورة، يمكن الآن الوقوف على مدى تناسب صفات هذا الحرف مع مقصود السورة، وملاءمته للمقام الوارد فيه.

مِنَ العرض السابق يتبين أن صوت الراء يجمع بين صفات قوية، وصفات ضعيفة، وصفات متوسطة بين القوة والضعف، وهذا الاختلاف يجعل االسورة تتردد بين تلك الدرجات جميعها (القوة، والتوسط، والضعف)؛ فرغم وجازة السورة وعدد آياتها المحدود، إلا أن **صوت الراء فيها أعطى مساحة كبيرة وتنوعًا ملحوظًا في درجات التعبير**؛ فنجد المطلع قويًّا زاخرًا بالأساليب التي تُنبئ عن عطية كبيرة صادرة عن مُعطٍ غنيٍّ واسع العطاء ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾، كالتوكيد الجاري مجرى القسم، ونسبة العطاء إلى الله –عز وجل– من خلال ضمير المتكلم (**إنا**)، والتعبير عن العطاء بصيغة الماضي الدال على تحقق هذا العطاء ووقوعه وأنه أمر ثابت، وحَذْف موصوف الكوثر وعدم تعيينه؛ ليكون أبلغ في العموم، والإتيان بلام التعريف في (الكوثر)؛ ليدل على كمال المسمى وتمامه.

ثم تسكن النفس وتطمئن بعد هذا الوعد الرباني؛ فيأتي التعبير هادئًا بعيدًا عن الانفعالات خاليًا من التعبيرات القوية، وإنما تمتاز التعبيرات بالهدوء ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢﴾؛ فنجد الأمر الذي يحمل معنى النصح والإرشاد، ثم اسم الربوبية الباعث على مزيد اطمئنان وسكينة وهدوء.

ثم تبرز النغمة القوية مرة ثانية في ختام السورة عند الحديث عن هذا المُبْغِض الذي وصفه الله–عز وجل– بالأبتر ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ٣﴾ ؛

(١) الأصوات اللغوية، د: إبراهيم أنيس،/٦٦ .

فيتكرر التوكيد من خلال تصدير الجملة بـــ**(إن)**، ويتكرر الخطاب المباشر للنبي صلى الله عليه وسلم، ثم الإتيان بضمير الفصل**(هو)** الدال على قوة الإسناد والاختصاص، ثم مجيء الخبر على صيغة الصفة المشبهة **(الأبتر)** دون اسم المفعول، وتعريفه باللام الدالة على حصول هذا الموصوف له بتمامه(١).

وهكذا تنوعت درجات التعبير في السورة الكريمة؛ تبعًا لتنوع المعاني الواردة في كل مقام، ومِنْ ثَمَّ لم يكن أنسب من الراء التي تتنوع صفاتها بين القوة، والتوسط والضعف؛ لتتناسب مع تنوع التعبير.

كما أن دلالة صوت الرّاء على صفات متضادة (ضعف، وقوة، وتوسط) يعطي للسورة حسًّا مرتفعًا بالمشاعر المتأججة؛ ذلك لأن الحرف يمتاز بالانصياع للظروف الصوتية حسب الأصوات المُجَاورة له؛ ففى هذه السورة يمتاز بالقوة والشدة أيضا لاتصافه بصفة التكرير؛ فأنتج مساحة واسعة تتناسب مع مساحة العطاء والخير الكوثر في السورة.

هذا، وبإنعام النظر في مَا بُنِيَتْ عليه فواصل هذه الآيات الثلاث نرى أن **(الراء)** الساكنة ذات توقيع صوتي متميز، تحمل من صوت التكرار الكثير؛ وحيث إن صوت الراء صوت مكرر، وامتاز بهذه الصفة عن سائر حروف الهجاء؛ فإن هذا الحرف يُوحِي بتكرار العَطاء، وتتابُع نُزول الخير؛ فاسمُ السورة الكوثر، وهو مُبالَغةٌ في الكثرة، فـــ" العرب تُسمِّي كلَّ شيء كثير في العدد والقدر والخطر كوثرًا"(٢)، **وإختيار هذا الحرف بهذه الصفة الخاصة به ليكون ختام فاصلة** السورة يدل على أن المِنَن الإلهية، والعطايا الربانية التي مَنَّ الله –تعالى– بها على نبيه في تلك السورة مِنَن لا حدَّ لها، مِنَن كثيرة عظيمة تتناسب مع عِظَم المُعْطي الوهَّاب، منن دنيوية وأخروية؛ فقد رفع ذكره، وخلَّد تاريخه، ومَحَق ذِكْر شانئه، وليس أدلّ

---

(١) ينظر: التفسير الكبير، لابن تيمية، تحقيق وتعليق: د/ عبد الرحمن عميرة، دار الكتب العلمية– بيروت– لبنان،/٥٠.

(٢) تفسير القرطبي، (٢١٦/٢٠).

على ذلك من التعبير عن هذا الخير بمفردة ﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾ المُعَرَّفة بالألف واللام؛ لتشمل جنس كل خير يمكن أن يكون؛ فالسورة جاءت بآياتها الثلاث لتحقق موضوعًا واحدًا هو الخير الكوثر -الكثير- لصاحب الكوثر صلى الله عليه وسلم، والانتصار له صلى الله عليه وسلم بإعطائه من أنواع الخير الكثير في الدنيا والآخرة، **وليس أنسب من الراء بدلالتها على التكرير؛ لتختم بها الفاصلة لتتناسب مع هذا العطاء الوفير.**

كما أن اختيار الراء لتكون صوت الفاصلة، دلَّ على تكرار المعاني جميعها الواردة في السورة الكريمة في الآيات الثلاث؛ فالراء في ختام الآية الأولى﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ تفيد تكرار العطاء وكثرته واتساعه، واتِّساع الفضل، وعظم المنَّة، وكبر النِّعمة، والراء في الآية الثانية﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ تفيدُ تعداد النَّحر وكثْرته واستِمراره، وكذلك كثرة الصلاة، والراء في ختام الآية الثالثة ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ تفيد البغض الدائم المتكرر لكل مبغض عدو للإسلام والمسلمين في كل زمان ومكان.

هذا، وبالنظر أكثر في مَا بُنِيَتْ عليه فواصل هذه الآيات الثلاث نرى أن ختام الفاصلة وهو حرف الراء أتى ساكنًا، لكن سَبَقَه حرف حَرَكَتُه الفتح في الآيات الثلاث(الكوثَرْ، وانحَرْ، الأبتَرْ)، على أن حركة الفتح هذه السابقة للراء الساكنة تُضيف الكثير للإيقاع الصوتي للسورة؛ فحركة الفتح هذه نصف الألف من انطلاق؛ فالفتح كما لا يخفى يمنح الجرس الصوتي انطلاقًا يتلاءم مع حركة التكرير وتوقيعه في صوت الراء؛ ليكون أكثر انطلاقًا لخفة الفتحة، وليتلاءم مع مخرج (الراء) فهو من طرف اللسان الأدنى إلى ظهره ومع ما فوق الثنايا؛ حيث يُتيح ذلك للنغم أن يتردد، ولكن هذا الانطلاق مُقَيَّد بسكون راء الفاصلة؛ **فالراء وما يعتريها من السكون بالوقف أحدث ضربًا من التوقيع البديع المتنوع؛** فتَكُون نغمات صوت الحروف سابقة الراء(**الثاء**)، و(**الحاء**)، و(**التاء**) المفتوحة جميعها

أشبه بنغمات الحركة، ونغمات صوت الراء أشبه بالسكتة في التنغيم؛ فتكاد تكون الراء أشبه بقرار التنغيمات التي تتردد من صوت الحروف السابقة للفاصلة، وسَاعَدَ على ذلك كله قِصَر آيات السورة الكريمة، وكل هذا تناسب دقيق وثيق بين عطاء صوت الراء الساكن في الآيات الثلاث، وما تزخر به هذه الآيات من المعنى(١).

هذا عن الحرف الذي اختير ليكون صوتًا لفاصلة السورة الكريمة، أمَّا الفاصلة ذاتها، وهي الكلمة الأخيرة في نهاية كل آية؛ فبالنظر نجد أن فواصل الآيات الثلاث انتهت بالراء الساكنة (الكوثرْ، وانحرْ، الأبترْ)، على أن هذه الفواصل لم تأتِ على وتيرة واحدة؛ فقد تغايرت صِيَغ الفواصل بما يتناسب مع المعنى الذي تضمنته كل آية كما سيتبين؛ فجاءت الآية الأولى **(كوثر)** على وزن **(فوعل)** للدلالة على المبالغة والكثرة، وهذا يتناسب مع وفرة العطاء الذي زخرت به الآية الأولى، ثم جاءت فاصلة الآية الثانية **(انحر)** على وزن (افْعَل) فِعْل أمر يتناسب مع الإصغاء والحث على فعل الأوامر الواردة في الآية من تأدية الصلاة، وتأدية شعيرة النحر، ثم جاءت فاصلة الآية الثالثة والأخيرة **(الأبتر)** صفة مشبهة على صيغة (أَفْعَل) لتتناسب مع كون مبغض رسول الله يتصف بتلك الصفة الشنيعة على سبيل الكمال، وأنه الأجدر بتلك الصفة من غيره؛ لما أساء به في حق النبي–صلى الله عليه وسلم–، **ومن ثم يمكن القول: إن مجيء الفواصل على تلك الصيغ يعد ضربًا من التنسيق لطيف؛ فكل فاصلة تتناغم مع المعنى الذي تضمنته الآية.**

وبإنعام النظر في صِيَغ فواصل الآيات الثلاث يتبين أن الآيات الثلاث بُنِيَتْ على السجع المطرف(٢)؛ حيث توافقت الكلمة الأخيرة في كل آية من الآيات

---

(١) العزف على أنوار الذكر، أ.د/ محمود توفيق سعد،/ ٢٦٦ بتصرف. وهذا الكلام جاء خلال تحليله البياني لسورة الشرح؛ فأسقطت الكلام هنا على سورة الكوثر.

(٢) السَّجْع المُطرَّف: هو السَّجْع الذي تتوافق فيه الكلمة الأخيرة في كلّ من الفقرتين بالقافية، ولا تتوافقان بالوزن العَروضيّ.

الثلاث بـالقـافيـة (الراء)، ولم تتوافق في الوزن العروضـــــي؛ فـالأولى على وزن **(فوعل)**، والثانية على وزن **(افْعَلْ)**، والثالثة على وزن **(أفْعَل)**، على أن السـجع هنا جاء مُصَـورًا لنا ما كان في صـدر النبي–صـلى الله عليه وسـلم– قبل هذا العطاء الكوثر، علاوة على أن ورود النظم الكريم في الآية عن طريق السـجع صَـدَّرَ نغمًا موسيقيًّا للسامع فأثار النفس لتلقى الآيات في ثبات وهدوء، كما أن السجع أعطى الفاصـــلة سـكونًا وسـكتة لطيفة في حال التريث عند القراءة؛ مما يغرس المعاني المطروقة في السورة ويرسخها في الذهن.

ومن كل ما سـبق يتبين أن سـورة الكوثر شـأنها شـأن سـور الذكر الحكيم جميعها تمنح القِيَم الصوتية فيها مكانة في تكوين صورة المعنى وتشكيلها، مع تنوع هذه القِيَم الصـوتية فيها، ومن أبرز تلك القيم ما تواطأت عليه فواصـل الآيات من التناغم، على قِصَـرِها ووجازتها وقلة عدد آياتها، مما يدل على أن تناغم الفواصـل ليس معياره كثرة الآيات في السـورة، بل مرده اقتضـاء المعنى ومتطلبات السـياق والمقام.

و"هذا الّذي رأيت في تآخي وتناغي القِيَم الصوتية ممثلا في فواصل السورة مع المعنى والغرض المُسـاق له الخطاب يزيده ما يأتيك إذا ما بَسَـطَّتَ النظر، ومَدَدَّتَ الإنصات إلى إيقاع مباني الكلمات، ومعاني الآيات" (١) .

* * *

المطلب الثالث: التناسب في المفردات

إن الوصـــول إلى جمال النظم القرآني لا يتم إلا من خلال التغلغل في المفردات التي تكونت السـورة الكريمة منها؛ لأن تلك الألفاظ هي اللبنة التي قامت عليها السورة في وحدة تامة بين موضوعاتها؛ فـــ " البيان القرآنيّ بما اصطفاه من

---

(١) العزف على أنوار الذكر، أ.د/ محمود توفيق محمد سعد، /٢٦٨، وقد ذكر شيخنا هذا النص بعد بيانه وتحليله لسورة الشرح؛ فنقلت النص وأسقطته هنا على سورة الكوثر.

مفردات المعجم العربيّ ونسجه لها مُعجِزًا، حتّى إنك لو شئت أن تُقيم كلمة غير قرآنية مقام كلمة قرآنية بينهما تآخٍ في المعنى والأداء، لتبين لك فرق ما بينهما، وفضل ما جاء في البيان القرآنِيّ على ما اجتهدت في اصطفائه من المعجم العربي على اتساعه" (١)، يقول أبو محمد ابن عطية الأندلسي (ت: ٥٤٦هـ): " كتابُ اللهِ لو نزعت منه لفظةٌ، ثُمَّ أُديرَ لسان العربِ فِي أن يوجد أحسن منها لم يوجد" (٢).

على أن الوقوف على تناسب المفردة القرآنية لسياقها يُبْحَث فيه مِنْ وُجوه عديدة، لعل أبرزها: صورة المفردة الدلالية، وصورتها الصيغية، وصورتها الصوتية، ثم الصورة الكتابية للكلمة القرآنية؛ ولذا سأقف على ألفاظ السورة لنرى كيف تحقق التناسب بينها وبين مقصود السورة وموضوعها.

وقد قسَّمْتُ الحديث عن التناسب في المفردات إلى:

أولا: التناسب الدلالي. **ثانيًا: التناسب الصيغي.**

ثالثًا: التناسب الصوتي. **رابعًا: التناسب الشكلي.**

أولًا: التناسب الدلالي

مِن التناسب في السورة أنْ جاءت الألفاظ متناسبة مع المعاني؛ فاللفظة القرآنية تقوم على الدقة؛ فكل مفردة في القرآن مختارة لتؤدي وظيفتها بدقة متناهية؛ ولذلك يستحيل استبدالها بغيرها؛ فالعامل الأساس في اختيار اللفظة دون غيرها هو ما تعطيه من معانٍ ودلالاتٍ إلى جانب الدلالة الأساسية التي قد تشترك فيها مع غيرها من الألفاظ؛ ولذا فإن أهم ما امتازت به المفردة القرآنية هو الائتلاف بين الحدث ودلالة اللفظ المُفصح عن الحدث، " ومن البَيِّن السافر أنَّ التحليل البيانيّ لمفردات السورة يَعْمَد فيه صاحبه إلى محاولة استبدال عناصر لغوية مقاربة، بعناصر لغوية تشكلت منها السورة، ثم موازنة ما استبدل بما استبدل به؛ ليتأتى له

(١) العزف على أنوار الذكر، أ.د/ محمود توفيق محمد سعد، /١٥٧.

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز= تفسير ابن عطية، (٥٢/١).

استبصار بعض معالم خصائص تلك العناصر اللغوية التى تنفرد بها، ولا سيَّما اذا ما كانت تلك الكلمات المستبدلة بغيرها مما له وجود فى سياق سورة أخرى" (١).

لذا؛ سوف أقف في هذا المبحث على مفردات سورة الكوثر، وبيان العطاء الدلالى لتلك المفردات فى سياقها؛ لنرى كيف تناسبت دلالتها ومعانيها مع مقصود السورة، ومع السياق والمقام الواردة فيه، مع الوقوف على المعاني المترادفة للألفاظ، وبيان الفروق بينها وبين نظيراتها؛ للوصول إلى تناسب المفردات مع المعاني.

١- التناسب الدلالي للمفردة ﴿ أَعْطَيْنَاكَ ﴾:

_ يقول تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ من تناسب الألفاظ وتوافقها مع المعنى أن كان التعبير عن العطاء بهذه المفردة ﴿ أَعْطَيْنَاكَ ﴾ دون غيرها مثل (آتيناك)، وإذا كان الإيتاء والإعطاء في الاستعمال اللغوي مترادفين؛ " فاللغويون لا يكادون يفرقون بينهما" (٢) إلا أن لكل منهما خصوصية تمتاز بها عن الأخرى؛ لذا نجد النظم القرآني يستخدم كل منهما في السياق الذي تتناسب معه.

ومقتضى الإعراب بالعطاء هنا دون الإيتاء أن خصوصيات مفردة العطاء تناسبت مع سياق ومقصود السورة، وتفصيل ذلك: " أن الإيتاء يُحْتَمل أن يكون واجبًا وأن يكون تفضلًا، وأما الإعطاء فإنه بالتفضل أشبه؛ فقوله: **(إنا أعطيناك الكوثر)** يعني هذه الخيرات الكثيرة، وهي: الإسلام، والقرآن، والنبوة، والذكر الجميل في الدنيا والآخرة، محض التفضل منا إليك وليس منه شيء على سبيل الاستحقاق والوجوب... وما كان على سبيل التفضل لا الاستحقاق يشعر بالدوام والتزايد

(١) العزف على أنوار الذكر،/١٥٦.

(٢) تاج العروس من جواهر القاموس، الزَّبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، (٣٤/٣٧) بتصرف يسير.

أبدا"[١]؛ فكانت مفردة العطاء الأنسب؛ للدلالة على دوام وازدياد هذا العطاء، وهو ما يتناسب مع مقصود السورة مِنْ تِعْدَاد المِنَنْ العظيمة على النبي-صلى الله عليه وسلم-.

كما أن الإعطاء يُوجِب التمليك، والملك سبب الاختصاص، بينما الإيتاء لا يقتضي التمليك، " قال الفاضل النيسابوري: في الإعطاء دليل التملك دون الإيتاء"[٢]، نقله صاحب الفروق اللغوية وزاد قائلًا: " قلتُ: ويؤيده قوله تعالى:﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١﴾ ؛ فإنه كان له منع مَن شاء منه كالمالك للملك، وأما القرآن فحيث إن أمته مشاركون له في فوائده، ولم يكن له منعهم منه، قال: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ﴾ [الحجر:٨٧] " [٣]، ويؤيده أيضًا أنه لما قال تعالى على لسان سليمان-عليه السلام-: ﴿ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓ ﴾[ص: من/٣٥]، قال تعالى: ﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾[ص: ٣٩]، وقال تعالى:﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ﴾ [الحجر:٨٧]، الحديث عن القرآن الكريم، وهو عليه السلام لا يمتلكه، فلا يجوز للنبي صلى الله عليه وسلم أن يكتم شيئا منه[٤]، ولما مَلَّك سبحانه وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم الكوثر وأعطاه إيَّاه تمليكا؛ كان التعبير بالإعطاء مناسبًا لأنه سبحانه وتعالى أعطاه الكوثر تمليكا وله أن يتصرف فيه كيفما يشاء؛ فيحق له أن يمنع منه من شاء.

---

(١) تفسير الرازي، (٣١٢/٣٢).

(٢) نقلًا عن: معجم الفروق اللغوية= الفروق اللوية بترتيب وزيادة، أبو هلال العسكري، تحقيق: الشيخ بيت الله بيات، ومؤسسة النشر الإسلامي، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بـ «قم»، ط١، ١٤١٢هـ،/ ٨٦ .

(٣) معجم الفروق اللغوية= الفروق اللغوية بترتيب وزيادة، /٨٧ .

(٤) ينظر: تفسير الرازي، (٣٢/ ٣١٢) .

علاوة على أن" الإعطاء يُسْـتَعمل في القليل والكثير، قال تعالى:﴿ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴾[النجم:٣٤]، أما الإيتاء فلا يستعمل إلا في الشيء العظيم، والأمور الواسعة، قال تعالى:﴿ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ ﴾ [البقرة: من/٢٥١]، وقال: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ ﴾[آل عمران: من/٢٦]؛ فعبَّر عن ذلك بلفظ (الإيتاء)؛ لأن الملك شيء عظيم لا يُعطَاه إلا من له قوة؛ فإنْ قيل: إن استعمال الإعطاء هنا مع الكوثر دون الإيتاء يدل على أن العطاء ليس عظيمًا، أُجِيب: بأن قوله تعالى:﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ يفيد تعظيم حال النبي–صلى الله عليه وسلم– من وجوه، هي: أن الكوثر الذي أعطيه كالشيء القليل بالنسبة إلى ما هو مُدَّخَر له صلى الله عليه وسلم من الدرجات العالية والمراتب الشريفة؛ فما هو مدخر له أعظم من هذا المذكور ..... كما أن هذا الذي أعطاه الله لنبيه وإن كان كوثرًا إلا أنه في حقه عليه الصلاة والسلام إعطاء لا إيتاء؛ لأنه دون حقه؛ فالمُهْدِي إذا كان عظيما كانت الهدية عظيمة، وإن كانت عظيمة فهي قليلة حقيرة بالنسبة إلى عظمة المُهْدَى له، وكأنه سبحانه وتعالى يقول لنبيه: جميع ما نِلْت مني عطية وإن كانت كوثرًا إلا أن الأعظم من ذلك الكوثر أن تبقى مظفرًا وخصمك أبتر، فإنا أعطيناك بالتقدمة هذا الكوثر، أما الذكر الباقي والظفر على العدو فلا يحسن إعطاؤه إلا بعد التقدمة بطاعة تحصل منك" [1].

هذا، وإن قيل: لِمَ لَمْ يأت التعبير بالهبة عوضًا عن الإعطاء والإيتاء؟ قلت: لم يقل سبحانه: (وهبناك)؛ لأن العطاء أعظم من الهبة؛ لِمَا فيه من الإتيان وزيادة؛ فالعطاء إتيان الى حد الرضى وزيادة؛ فقال:﴿ أَعْطَيْنَٰكَ ﴾ لتدل على عظم ورهبة العطية؛ فهي أعظم وأكثر من أي هبة يمكن أن تُوهَب لأحد، يؤكد ذلك

(١) ينظر: تفسير الرازي، (٣٢/ ٣١٢، ٣١٣) .

نسبة هذا العطاء مباشرة إلى رب العالمين﴿ إِنَّآ ﴾، واستخدام أساليب التوكيد، وكاف الخطاب المباشر، واستخدام صيغة الماضي.

علاوة على أن" الهبة إحسان محض، ليس في مقابلتها شيء يكون عوضًا للواهب" (١)، أما السياق هنا فيدل على أن إعطاء الكوثر للنبي استوجب شكر الله تعالى على هذا العطاء، وتمثل هذا الشكر في الصلاة والنحر، وكأن الصلاة والنحر كانا مقابل ما منحه الله تعالى إياه، ولذا فإن العطاء أنسب هنا من التعبير بالهبة.

ومن كل ما سبق يتبين أن انتقاء مفردة ﴿ أَعْطَيْنَاكَ ﴾ دون غيرها يتناسب أتم تناسب مع مقصود السورة وموضوعها؛ فالعطاء الذي أعطيه النبي–صلى الله عليه وسلم– في سياق هذه السورة عطاء دائم وفي ازدياد، واقتضى تمليك العطية وحق التصرف فيها، كما أنه عطاء يُرْتَحَل عنه عما قريب، وينتقل منه إلى ما هو أعظم منه، كما أنه عطاء يستوجب شكر المُنْعم على هذه النعم الكثيرة، وجميع تلك المعاني تجعل مفردة ﴿ أَعْطَيْنَاكَ ﴾ هي الأنسب والأليق بالمقام في السورة الكريمة.

٢_ التناسب الدلالي للمفردة ﴿ ٱلْكَوْثَرَ ﴾:

_ المعنى اللغوي للمفردة:

جاء في معجم مقاييس اللغة أن " (الكاف، والثاء، والراء) أصل صحيح يدل خلاف القلة، من ذلك الشيء الكثير، وقد كثر، ثم يزاد فيه للزيادة في النعت؛ فيقال الكوثر: الرجل المعطاء، وهو فوعل من الكثرة.... والكوثر: نهر في الجنة... قالوا هذا وقالوا أراد الخير الكثير، والْكَوْثَرُ: الْغُبَارُ، سُمِّيَ بِذَلِكَ لِكَثْرَتِهِ وَثَوَرَانِه" (٢).

---

(١) البحر المحيط ، (١٢٦/٣).

(٢) معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ ، ١٩٧٩م، (١٦٠/٥، ١٦١).

والكثرة: نماء العدد[١]، والكوثر: " الكثير من كل شـيء،... والسـيد الكثير الخير،... وقيل إنه نهر في الجنة يتشعب منه جميع أنهارها، وهو للنبي صلى الله عليه وسلم، خاصة...، وهو فَوْعَل من الكثرة والواو زائدة، ومعناه: الخير الكثير"[٢].

وعند علماء التفسير: اختلف أهل التفسير في بيان معنى الكوثر، وتعددت أقوالهم وتباينت آراؤهم[٣]، ومما جاء فيه: والكوثر: فوعل من الكثرة، مثل النوفل من النفل، والجوهر من الجهر، والعرب تسمي كل شيء كثير في العدد والقدر والخطر كوثرا،... قيل لعجوز عاد ابنها من سفر: بِمَ آبَ ولدك؟ قالت: بالكوثر، تعني عاد بخير كثير، والكوثر من الرجال: السيد الكثير الخير...، والكوثر: العدد الكثير من الأشياع، والكوثر من الغبار: الكثر، وقد تكوثر: إذا كثر[٤].

وقيل: المراد بالكوثر: العلم، والقرآن، قاله الحسـن [٥]، وقيل: " الكوثر: النبوّة، والكتاب" [٦]، وقيل المراد بالكوثر: كثرة النسـل والذرية، وقد ظهر ذلك في نسـله من ولد فاطمة الزهراء؛ إذ لا ينحصـر عددهم؛ " فقد ملأت ذريته من فاطمة الزهراء الأرض وهم الأشـراف مع مبالغة الملوك في قتلهم وإخلاء الأرض من نسلهم؛ خوفًا من شرفهم العالي على شرفهم" [٧]، وقيل: الكوثر: الخير الكثير الذي

---

(١) كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: د: مهدي المخزومي، د: إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، (٣٤٨/٥) .

(٢) لسان العرب، الإمام ابن منظور، دار صادر– بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ ،(كثر).

(٣) قال أبو حيان: " وذكر في التحرير في الكوثر سـتة وعشـرين قولا ". البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان، (٥٥٦/١٠).

(٤) ينظر: الجامع لأحكام القرآن الكريم، للقرطبي،(٢١٦/٢٠)، والكشـاف للزمخشـري، (٨٠٦/٤).

(٥) زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي، (٤٩٧/٤)، والجامع لأحكام القرآن، (٢١٧/٢٠)، والوسيط للواحدي، (٥٦٢/٤).

(٦) ينظر: تفسير القرطبي (٢١٧/٢٠)، زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي، (٤٩٧/٤).

(٧) نظم الدرر، للبقاعي، (٢٩٢/٢٢).

أعطيه النبي محمد صلى الله عليه وسلم، قاله ابن عباس[١]، وأكثر المفسرين على أنه نهر في الجنة أعطاه الله لنبيه صلى الله عليه وسلم[٢]، وقال الإمام البيضاوي: " الكوثر: الخير المفرط، الكثرة من العلم والعمل وشرف الدارين" [٣].

وقيل: الكوثر: " على وزن فوعل وهي من صيغ الأسماء الجامدة غالبًا نحو الكوكب والجورب...، ولا تدل في الجوامد على غير مسماها، ولما وقع فيها هنا مادة الكثر كانت صيغته مفيدة شدة ما اشتقت منه بناء على أن زيادة المبنى تؤذن بزيادة المعنى" [٤]، ولذلك فسَّره الزمخشري بالمفرط في الكثرة، وهو أحسن ما فسر به وأضبطه[٥].

ومما ورد في معناه أيضا ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ فلقد " ثبت تخصيصه بالنهر من لفظ النبي صلى الله عليه وسلم فلا معدل عنه" [٦]؛

---

(١) ينظر: زاد المسير في علم التفسير، (٤٩٧/٤)، والنكت والعيون، للماوردي، (٣٥٥/٦)، والمحرر الوجيز، لابن عطية، (٥٢٩/٥)، والوسيط في تفسير القرآن المجيد، الواحدي، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، د: أحمد محمد صيرة، د: أحمد عبد الغني الجمل، د: عبد الرحمن عويس، قدمه وقرظه: أ.د/عبد الحي الفرماوي، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط١، ١٤١٥هـ ، ١٩٩٤م، (٥٦١/٤).

(٢) التفسير الوسيط، للواحدي، (٥٦٠/٤)، وتفسير ابن كثير، تحقيق: سلامة، (٥٠٢/٨)، ومعالم التنزيل في تفسير القرآن= تفسير البغوي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي–بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ ، (٣١٤/٥)، وفتح القدير، للشوكاني، (٦١٦/٥)، وتفسير القرطبي، (٢٠/ ٢١٦)، وتفسير الطبري، تحقيق:شاكر، (٦٥١/٢٤).

(٣) تفسير البيضاوي= أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي– بيروت، ط١، ١٤١٨هـ، (٣٤٢/٥).

(٤) التحرير والتنوير، (٥٧٢/٣٠، ٥٧٣).

(٥) ينظر: تفسير الزمخشري، (٨٠٦/٤)، والتحرير والتنوير، (٥٧٣/٣٠).

(٦) فتح الباري. حيث ثبت عن النبي صلى الله عليه ويلم قوله: ((أتدرون ما الكوثر؟)) قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: ((فإنَّه نهرٌ وَعَدَنِيه – عزَّ وجلَّ – فيه خيرٌ كثيرٌ، هو حوضٌ تَرِدُ عليه أمَّتي

حيث قال: " هو نهر في الجنة، حافتاه من ذهب، ومجراه على الدر والياقوات، وتربته أطيب من المسك، وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح " [1]، ولعل هذا أصح الأقوال جميعها.

هذا، ولا تعارض بين الأقوال جميعها؛ إذ إن المفردة في اللغة تعني: الكثير من كل شيء؛ لذا يمكن أن تندرج تحت دلالتها جميع ما فُسِّر؛ فالكلمة عامة تصح أن تكون علمًا ووصفًا؛ فتحتمل تلك الأقوال السابقة جميعها من العلم، والنبوة، والقرآن، والنهر، أو زيادة ذريته ردًّا على مَنْ زعم أنه أبتر، أي يُعطيك نسلا في غاية الكثرة لا ينقطع إلى يوم القيامة؛ ذلك لأن كل ما أعطيه النبي صلى الله عليه وسلم راجع إلى معنى الكثرة.

والحق أن الكلمة جامعة مانعة تشمل كل ما ذهب إليه أهل التأويل؛ فالقول: بأن الكوثر هو الخير الكثير، لا يخالف القول: بأن الكوثر هو نهر في الجنة؛ لأن النهر فرد من أفراد الخير الكثير.

ويؤكد أن الكلمة جامعة مانعة مجيئها معرفة بـ(أل) العهديَّة أو الجنسيَّة: العهديَّة؛ أي: الكوثر المعهود الذي عرَفتَه وبشَّرك الله به، والجنسيَّة؛ أي: جنس الخير أُعطِيتَه، فكلُّ ما يتصوَّره عقلٌ أو يتخيَّله ذهنٌ قد نِلتَه وأخذتَه يا رسول الله، علاوة على أن حذف الموصوف من ﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾ جعله كوثرًا غير مخصص، بل عام شامل مستمر يفيد العموم والشمول، وهو أبلغ من تخصيصه بموصوف معين، وربما تكون (أل) في ﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾ للاستغراق، ولام الاستغراق هنا جاءت لتكون كاملة في إعطاء معنى الكثرة، والمؤذنة بإفراط الكثرة، والمنبئة عن العطيات الوافرة.

يوم القيامة، آنيتُه عددُ النُّجوم، فيختَلِجُ العبد – أي: ينتزع ويقتطع – منهم، فأقول: إنَّه من أمتي! فيُقال: إنَّك لا تَدرِي ما أحدَثَ بعدَك))؛ (رواه الترمذي) .

(١) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان، (٥٥٦/١٠) .

على أن حَمْل معنى الكوثر على الإطلاق دون تقييد بموصـــوف واحد يتناسب مع السياق؛ لأن حذف الموصوف دلَّ على أن الكوثر صفة، وذلك يتناسب مع السياق، كما أن جعل الكوثر علمًا على النهر المعروف ينسجم مع سياق الآية أيضا،

ومِنْ ثَمَّ يكون الكوثر صفة وعلمًا يجمع بين خيري الدنيا والآخرة لرسول الله –صلى الله عليه وســـلم–، وإذا كان كذلك؛ **فإن كلمة ﴿ ٱلْكَوْثَرَ ﴾ دلَّت بمادتها وحذف موصـــوفها على الكثرة الكاثرة**، وقد أفادت أن الله–تعالى– قد أعطى نبيه خيري الدنيا والآخرة؛ فالكوثر لا نهاية لفضله، ولا حَدَّ لمدلوله، ممتد من الدنيا إلى الآخرة.

ومن كل ما ســبق يتبين أن مفردة﴿ ٱلْكَوْثَرَ ﴾ تناســبت أتم تناســب مع المعنى المراد؛ إذ إنها مفردة جامعة مانعة شملت جميع ما فسرت به، ولا تعارض بين جميع تلك الدلالات، وَمِنْ ثَمَّ كانت الأوفق والأقدر على التعبير عن العطاء الوفير الذي يتناســـب مع عِظَم المُعْطِي والمُعْطَى والمُخَاطَب بالعطاء، ولو بُدِلَت تلك المفردة بعشـــر كلمات أو أكثر ما حملت جميع الدلالات التي حملتها تلك اللفظة الوجيزة؛ فســـبحان مَنْ اختار هذا اللفظ القرآني المعجز في هذا الموضـــع الوحيد في القرآن العظيم.

وتجدر الإشارة إلى أن " جميع ما جاء في تفسير ﴿ ٱلْكَوْثَرَ ﴾ قد أُعطيه النبي–صلى الله عليه وسلم–، أُعطي النبوّة، وإظهار الدين الذي بعث به على كل دين، والنصر على أَعدائه، والشفاعة لأُمته، وما لا يحصى من الخير، وقد أُعطي من الجنة على قدر فضله على أَهل الجنة– صلى الله عليه وسلم–" (١).

٣– التناسب الدلالي للمفردة﴿ فَصَلِّ ﴾:

ومن تناســب المفردات في الســورة: التعبير بالفعل ﴿ فَصَلِّ ﴾ في قوله تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ ﴾، دون قوله : (أقم الصلاة)، ومقتضى الإعراب

(١) اللسان، (كثر) .

بالفعل﴿ فَصَلِّ ﴾ دون غيره هو تناسبه مع المقام؛ ذلك لأن المخاطب بفعل الأمر هنا هو الرسول–صلى الله عليه وسلم– خاصة دون بقية أمته، ولو قال: (أقم الصلاة) لكان المعنى المراد من " إقامة الصلاة: توفية حدودها وإدامتها، وتخصيص (الإقامة) تنبيه أنه لم يرد إيقاعها فقط؛ ولهذا لم يأمر بالصلاة ولم يمدح بها إلا بلفظ الإقامة" (١)، وهذا المعنى محقق حقًّا في صلاته صلى الله عليه وسلم؛ لذلك لم يخاطبه المولى عز وجل بقوله: (أقم الصلاة)، وإنما خاطبه بقوله: ﴿ فَصَلِّ ﴾؛ بيانًا لرفعته ومكانته صلى الله عليه وسلم عند ربه تبارك وتعالى.

على أن الصلاة هنا تحمل على إطلاقها أخذًا من حذف مفعول ﴿ فَصَلِّ ﴾ لتذهب النفس فيها كل مذهب؛ ولتكون هذه الصلاة التي كانت قرة عينه خالصة لله وحده، علاوة على أن الأمر بإقامة الصلاة خاص بالمؤمنين؛ فأراد عز وجل تمييز رسول الله–صلى الله عليه وسلم– عن بقية الخلق؛ لأن المخاطب هنا هو النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فأتى اللفظ **(صل)** ليكون خصوصية من خصوصيات رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فالأمر بإقامة الصلاة يكون المخاطب فيه المؤمنين عامة، على أن خطابهم بذلك التركيب (أقيموا الصلاة) للتأكيد على المعاني جميعها التي يشتمل عليها الفعل (أقام)، لا مجرد الأمر بالصلاة أو الإتيان بها، ومن معاني الإقامة: الدوام والثبات، وقام بالأمر وأقام الأمر إذا أتى به معطى حقوقه، أقمت الشيء: إذا وفيت حقه، ومن معاني قام بالأمر وأقامه: إذا جد فيه وشمر له من غير تأخير ولا تقصير، جاء في اللسان: " ﴿ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (الكهف: من/١٤)؛ أي:عزموا فقالوا،... وقد يجيء القيام بمعنى المحافظة والإصلاح،...ويجيء القيام بمعنى الوقوف والثبات....، وقوله عز وجل:﴿ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمًا ﴾ (آل

(١) تفسير الراغب الأصفهاني، الراغب الأصفهاني، تحقيق ودراسة: د. محمد عبد العزيز بسيوني، كلية الآداب– جامعة طنطا، ط١، ١٤٢٠هـ ، ١٩٩٩م، (٨١/١).

عمران: من/٧٥)؛ أي مُواظِبًا مُلازِمًا، ومنه قيل في الكلام للخليفة: هو القائِمُ بالأمر، وكذلك فلان قائِمٌ بكذا إذا كان حافظًا له متمسكًا به، قال ابن بري: والقائِمُ على الشيء الثابت عليه، ...يقال: قام فلان على الشيء إذا ثبت عليه وتمسك به"[(١)] .

وهذه المعاني جميعها مرادة في قوله تعالى: (وأقيموا الصلاة)؛ فإقامة الصلاة تكون بالديمومة والثبات، والمحافظة عليها في مواقيتها، والتشمير لها من غير فتور ولا توان، وفي إتمام أركانها وشروطها، وفي توفيتها حقها بالخشوع فيها بين يدي الله سبحانه وتعالى، والإخلاص فيها بالتدبر والدعاء.

ولمَّا كان الخطاب هنا في السورة الكريمة للرسول–صلى الله عليه وسلم– كان في غير حاجة إلى التذكير بهذه المعاني؛ لأنه صلى الله عليه وسلم أعرف البشر بها؛ فكان التوجيه إلى الصلاة فقط بقوله تعالى:﴿ فَصَلِّ ﴾؛ لأنه صلى الله عليه وسلم أفضل البشر أداء للصلاة بكيفيتها السليمة وشروطها الصحيحة؛ فالمعنى المراد من الإقامة محققٌ حقًا في صلاته صلى الله عليه وسلم.

فإن قيل: لم قال سبحانه وتعالى:﴿ فَصَلِّ ﴾، ولم يقل: (فاشكر) إذ اللائق عند النعمة الشكر؟ أجيب: بأن الصلاة مشتملة على الشكر وزيادة؛ فالأمر بالصلاة أحسن، كما " أَنَّهُ لَوْ قالَ: فاشْكُرْ لأوهم ذلك أنه عليه الصلاة والسلام ما كانَ شاكِرًا لَكِنَّهُ كانَ مِن أوَّلِ أمْرِهِ عارِفًا بِرَبِّهِ، مُطِيعًا لَهُ شاكِرًا لِنِعَمِهِ، أمّا الصَّلاةُ فَإنَّهُ إنَّما عَرَفَها بِالوَحْيِ" [(٢)]، علاوة على أن الشكر قد يكون قليلًا أو كثيرًا، وهذا العطاء الكبير يستوجب الحمد والشكر الكثير.

---

(١) اللسان، (قوم).

(٢) تفسير الرازي= مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، (٣١٧/٣٢) بتصرف يسير. وقيل: إن معنى (فصل لربك): أي فاشكر لربك، وفي هذا تنبيه على أن شكر النعمة يجب على الفور لا على التراخي، وقيل: إن معنى (فصل لربك) أي: فادْعُ اللَّهَ؛ لِأَنَّ الصَّلاةَ هي الدُّعاءُ، والقول الأول هو الأولى. ينظر: تفسير الرازي، (٣١٧/٣٢).

والسؤال الذي يطرح نفسه: كيف يؤمر النبي صلى الله عليه وسلم بالصلاة والنحر وحياته كانت مليئة بالذكر والشكر؟ ووقوع الصلاة والشكر منه صلى الله عليه وسلم عند بشارته بالعطاء الكوثر أمر لا محالة واقع، وأقول كما قال الطاهر بن عاشور في قوله تعالى:﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ﴾ [النصر: من/٣]: إن الأمر بالصلاة والشكر هنا للنبي صلى الله عليه وسلم من باب التذكير فقط، أي تذكيره صلى الله عليه وسلم بصلاة خاصة ونحر خاص لم يحصل من قبل، يتناسب مع هذا العطاء الكوثر، يقول الطاهر بن عاشور في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ﴾ [النصر: من/ ٣] " شأن الرسول–صلى الله عليه وسلم أنه قد فعله، وإنما يحتاج إلى تذكيره بتسبيح خاص لم يحصل من قبل في تسبيحاته وباستغفار خاص لم يحصل من قبل في استغفاره، ويجوز أن يكون التسبيح المأمور به تسبيح ابتهاج وتعجب من تيسير الله تعالى له ما لا يخطر ببال أحد أن يتم له ذلك" (١).

ومن كل ما سبق يتبين أن مفردة﴿ **فَصَلِّ** ﴾ هي الأليق بالمقام، والأنسب للسياق والمقصود من السورة الكريمة.

٤– التناسب الدلالي للمفردة﴿ لِرَبِّكَ ﴾:

سنقف هنا عند خيارين كانا يمكن أن يكونا في غير القرآن الكريم، الأول منهما: أنه يمكن أن يقال: **(فصل لله)** باختيار لفظ الجلالة الدال على الألوهية دون الربوبية، ويكون الخيار بين اسم ظاهر وآخر ظاهر، والثاني منهما: أنه يمكن أن يقال: **(فصل لنا)** بحذف الاسم الظاهر ألوهية كان أو ربوبية والتعبير، عنه بضمير الجمع (نا)، ويكون الخيار بين اسم ظاهر وضمير.

أقول: إن من تمام التناسب أن جاء النظم المعجز على هذه الشاكلة؛ فقال: ﴿ **فَصَلِّ لِرَبِّكَ** ﴾ ولم يقل: **(فصل لله)**؛ لأن لفظ الرب مؤذن بالرأفة واللطف والرحمة

(١) التحرير والتنوير، (٥٩٣/٣٠) .

والعناية والرعاية والحماية التي أحاطه الله بها؛ فالإعراب بها يزيد مِنْ بثّ روح الطمأنينة والثقة في قلب النبي، وينثر جوًّا من اليقين بوعد الله–تعالى له، وما من شك أنه صلى الله عليه وسلم في حاجة إلى هذا التطمين في هذا الموقف، وممّا زاد في طمأنته صلى الله علين وسلم إضافة المفردة (رب) إلى ضمير المخاطب؛ فقال:﴿ لِرَبِّكَ ﴾ وفي ذلك تشريف وتكريم له صلى الله عليه وسلم، وتنبيه على مزيد رعايته والعناية به، وفيه تعريض بأنه يربه ويرأف به.

وأمر آخر وهو أن الآية إنجاز لِمَا وعد الله–تعالى– رسوله صلى الله عليه وسلم في سورة الضحى:﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾ ﴾، ومعناها صل لربك الذي أنجز الوعد الذي وعدك إياه، والعطاء من الرعاية؛ فناسب ذلك أن يأتي التعبير بالمفردة التي تدل على الرعاية والعناية؛ فكانت مفردة(**الرب**)، **علاوة على أن الربوبية من التربية وهي إلى الماديات أقرب، والألوهية من التأليه وهي إلى المعنويات أقرب**، ولمَّا كان عطاء رب العزة لنبيه صلى الله عليه وسلم في هذه السورة عطاء مادي ملموس إذ أعطاه الكوثر الذي فسر بكل خير يمكن أن يكون ناسب ذلك التعبير بالربوبية.

هذا بالإضافة إلى أنه بإنعام النظر في النظم القرآني تبين أنه لم يرد في القرآن كله لفظ العطاء إلا مع لفظ الرب، قال تعالى: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾[الإسراء:٢٠] ، وقال: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[طه:٥٠] ، وقال أيضا: ﴿ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴾[النبأ:٣٦] ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ [الضحى:٥] ؛ فيلاحظ أنه لم تقترن كلمة العطاء في القرآن كله بغير لفظ الرب.

أما مقتضى التعبير بقوله:﴿ لِرَبِّكَ ﴾ دون **فصل لنا**؛ فيجيب عليه الإمام الزمخشري قائلًا: " وقال:﴿ لِرَبِّكَ ﴾ وفيه حسنان، وروده على طريقة الالتفات التي هي أم من الأمهات، وصرف الكلام عن لفظ المضمر إلى لفظ المظهر، وفيه

إظهار لكبرياء شـأنه، وإنافة لعزة سـلطانه " [1]، وبيان كلام الإمام أن النظم الكريم التفت من المضـمر (**أعطينا**) إلى المظهر ﴿لِرَبِّكَ﴾؛ إظهارا لكبرياء شـأنه وعزيز سلطانه؛ لأنه ربه المستحق للعبادة من أجل ربوبيته، فضلا عن فرط إنعامه.

٥- التناسب الدلالي للمفردة ﴿وَٱنْحَرْ﴾:

قال ابن فارس: " النون والحاء والراء كلمة واحدة يتفرع منها كلمات الباب، هي النحر للإنسـان وغيره، والجمع نحور، والنحر: البزل في النحر ....، والناحران: عرقان في صدر الفرس" [2].

والنحر: قطع الشـيء المنحور، وأصـله من نحرت، أي أصـبت نحره، نحو ركبته، أي أصبت ركبته، والنحر في الإبل غالبًا، والذبح في البقر والغنم... والنحر من الآدمي موضـع القلادة، ... والنحرير: الحاذق بالشـيء العالم به... وانتحروا على كذا: تقاتلوا، تشبيها بنحر البعير، ونحرة الشهر ونحيره: أوله. وقيل: آخر يوم منه، كأنه ينحر الذي قبله[3].

وأوثر التعبير بـالمفردة ﴿وَٱنْحَرْ﴾ دون غيرها من الألفاظ كـالذبح مثلا؛ لأن المفردة قد حققت التناسب التام بين معناها والمقصود من السورة الكريمة؛ ذلك لِمَا تحملـه المفردة من دلالـة على الكرم والجود؛ لأن النحر يختص بـالإبل، أمـا

(١) إعجاز سـورة الكوثر، للإمام جار الله أبي القاسـم الزمخشـري، تحقيق: حامد الخفاف، دار البلاغة للطباعة والنشر، بيروت– لبنان، ط١، ١٤١١هـ، ١٩٩١م، /٥٨، ٥٩.

(٢) معجم مقاييس اللغة، (٥/٤٠٠) (نحر).

(٣) ينظر: المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصـفهانى، تحقيق: صـفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية– دمشق بيروت، ط١ ، ١٤١٢ هـ،/ ٧٩٤، وعمدة الحفاظ في تفسير أشـرف الألفاظ، السـمين الحلبي، تحقيق: محمد باسـل عيون السـود، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٧هـ ، ١٩٩٦م، (٤/١٥٠).

الذبح فيختص بالبقر والغنم، وما كان قصير الرقبة من غيرهما[١]، جاء في بدائع الصنائع: " السُّنَّةَ فِي الْإِبِلِ النَّحْرُ وَفِي غَيْرِهَا الذَّبْحُ. .... وَكَذَا النَّبِيُّ- عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - نَحَرَ الْإِبِلَ وَذَبَحَ الْبَقَرَ وَالْغَنَمَ؛ فَدَلَّ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ السُّنَّةُ، وَذَكَرَ مُحَمَّدٌ- رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي الْأَصْلِ وَقَالَ: بَلَغَنَا أَنَّ أَصْحَابَ النَّبِيِّ- عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كَانُوا يَنْحَرُونَ الْإِبِلَ قِيَامًا مَعْقُولَةَ الْيَدِ الْيُسْرَى؛ فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ النَّحْرَ فِي الْإِبِلِ هُوَ السُّنَّةُ... وَالْأَسْهَلُ فِي الْإِبِلِ النَّحْرُ لِخُلُوِّ لَبَّتِهَا عَنْ اللَّحْمِ وَاجْتِمَاعِ اللَّحْمِ فِيمَا سِوَاهُ مِنْ خَلْفِهَا، وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ جَمِيعُ خَلْقِهَا لَا يَخْتَلِفُ" [٢].

ولمَّا كانت الإبل من خيَار أموال العرب، ومِنْ أكْرَم أنعامهم، كان الأمر هنا بالنحر دون الذبح؛ لأنه سبحانه وتعالى أراد التقرب إليه بأعزِّ الأشياء عند العرب، فلو قال: (اذبح) لكان جائزًا أن يذبح طيرًا أو غير ذلك، علاوة على أن التقرب إلى الله –تعالى– بما دون الإبل من البقر والغنم أيسر وأسهل على النفس، لكن التقرب إلى الله بنحر الإبل شاق على النفس؛ لأنها خيار الأموال، ومن ثم كان التعبير بالنحر متناسبا مع السياق؛ لدلالته على الجود والكرم الكثير الذي يتناسب مع عطاء الله الكثير؛ فالإبل من خيار أموال العرب، وبما أنَّ الله تعالى أعطى رسوله الخير الكثير والكوثر، فلا يناسب هذا العطاء الكبير أن يكون الشكر عليه قليلًا؛ لذا اختار سبحانه وتعالى التعبير بالنحر دون الذبح، ويؤكد إرادة الكثرة وعدم حدها بحد حذف مفعول ﴿وَٱنۡحَرۡ﴾؛ لينحر ويذبح الإبل والبقر والغنم في كل مناسبة؛ إطعامًا للفقراء والمحتاجين تقربًا إلى الله–تعالى.

---

(١) النحر في اللغة يتعلق بنحر الإبل فقط؛ لأنَّها تنحر من نحرها، ولا تستعمل مع غير الإبل، وقد يستعمل الذبح للجميع: البقر، والطيور، والشاة والإبل.

(٢) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين، أبو بكر بن مسعود بن أحمد الكاساني الحنفي، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م، (٤١/٥).

كما يرشح إيثار النحر رعاية فاصلة الراء في السورة، يقول الزمخشري: "مراعاة حق التسجيع الذي هو من جُمْلة صنعة البديع، إذا ساقه قائله مساقًا مطبوعًا، ولم يكن متكلفًا أو مصنوعًا" (١).

هذا، وجدير بالذكر أن مفردة ﴿وَٱنْحَرْ﴾ لمْ تَرِد في القرآن الكريم إلا في هذا الموضع؛ فهي فريدة من الفرائد القرآنية التي اختصت بهذا الموضع، وكأنها اختصت به صلى الله عليه وسلم دلالة على كرمه وجوده الذي لا نظير له.

وإن قيل: لِمَ لَمْ يأت النظم القرآني بِفِعْل الأضحية نفسه؟ إذ في غير القرآن يمكن أنْ يقال: (وَضَحِّ) قلت: لأن الأضحية هي كلُّ ما تصحُّ به الأضحية الشرعية؛ فلو ضحى بشاة لكَفَتْ، علاوة على أن الأضحية لها أوقات محددة وهي أربعة أيام: يوم النحر، وأيام التشريق الثلاثة فقط، وهو سبحانه وتعالى لم يُرِدْ أنْ يكون الشكر على العطاء مقرونا أو مُقيدا بأيام محددة.

٦- التناسب الدلالي للمفردة ﴿ٱلْأَبْتَرُ﴾:

_ **المعنى اللغوي للمفردة:** " البتر: استئصال الشيء قطعًا،... بترت الشيء بترًا: قطعته قبل الإتمام، والانبتار: الانقطاع، ...، وقيل: كل قطع بتر...، وسيف باتر وبتور وبتار: قطاع، والباتر: السيف القاطع، والأَبْتَرُ: المقطوعُ الذَّنَب من أَيّ موضع كان من جميع الدواب " (٢)، وفي المفردات: " فلان أبتر: إذا لم يكن له عقب يخلفه، ورجل أبتر وأباتر: انقطع ذكره عن الخير، ورجل أباتر: يقطع رحمه،... وخطبة بتراء لما لم يذكر فيها اسم الله تعالى (٣).

وكانت قريش تقول لمن مات ذكور ولده: قد بتر فلان؛ فلما مات لرسول الله صلى الله عليه وسلم ابنه القاسم بمكة، وإبراهيم بالمدينة، قالوا: بتر محمد

---

(١) إعجاز سورة الكوثر، /٥٨ .

(٢) اللسان، (بتر).

(٣) المفردات، /١٠٧.

وانقطع ذكره؛ فليس لـه من يقوم بـأمره من بعـده؛ فـأكـذبهم الله تعـالى، ورفع ذكره وجعل مَنْ قال هذه المقالة هو الأبتر إذا ذكر لا يذكر إلا بِشَرّ، ونزلت الآية [١].

ولم يختلف المعنى الذي ذكره أهل التفسـير كثيرًا عما أورده أهل اللغة؛ حيث قال الإمام صـديق خان في تفسير الآية: " مُبغضـك هو المنقطع عن الخير على العموم؛ فيعم خيري الدنيا والآخرة، أو الذي لا عقب له، أو الذي لا يبقى ذكره بعد موته" [٢]، ثم أورد ما جاء عند أهل اللغة؛ فقال: " قال أهل اللغة: الأبتر من الرجال الذي لا ولد له، ومن الدواب: الذي لا ذنب له، وكل أمر انقطع من الخير أثره فهو أبتر، .....بتره: قطعه قبل التمام" [٣].

وبالرجوع إلى نظم السورة الكريمة تبين أن المفردة ﴿ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ تتناسب دلالة مع المعنى المراد؛ فمجيء المفردة من مادة (بتر) التي تدور حول القطع، يشـير إلى الرد الصـارم القوي الذي لا يحتاج أخذ ورد وحجاج من الله عز وجل على هذا المبغض الذي تَقَوَّل على رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم؛ حيث قطع عنه كل خير؛ فصـار خاسـرا ومعدما وذليلًا وحقيرًا، فالمفردة أتت لتشـير إلى جميع تلك الدلالات، جاء في اللسـان أن: " **الأَبْتَرُ**: المُعْدِمُ، والأَبْتَرُ: الخاسـرُ " [٤]، وورد عند أهل التفسير للمفردة دلالات أخرى؛ حيث قيل: "الأقل والأذلّ المنقطع دابره الذي لا عقب له" [٥]، وقيل: الأبتر: " الحقير الذليل ... وقيل: معناه الفرد الوحيد، وقيل:

---

(١) ينظر: عمدة الحفاظ للسـمين الحلبي، (١٥٦/١)، تفسـير الماوردي= النكت والعيون (٦/ ٣٥٦)، والمفردات، /١٠٧، وإعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم، الحسين بن أحمد بن خالويه، أبو عبد الله، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٣٦٠هـ، ١٩٤١م، /٢١١.

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق خان القِنَّوجي، قدّم له: عَبد الله بن إبراهيم الأنصَاري، المَكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، صَيدَا– بَيروت، ١٤١٢هـ ، ١٩٩٢م، (٤١٣/١٥).

(٣) السابق، (٤١٤/١٥).

(٤) اللسان، (بتر) .

(٥) تفسير الطبري، تحقيق: شاكر، (٦٥٦/٢٤) . .

هو الذي لا خير فيه حتى صار مثل الأبتر" [١]، وخلاصة دلالة تلك المفردة أن " كل أمرٍ انقَطَع من الخيْر أثرهُ فهو أَبْتَر[٢]، وتلك الدلالات جميعها تتناسب مع جُرم ما أقدم عليه هذا المبغض.

* * *

ثانيًا: التناسب في الصيغ:

يُعَد تناسب الصيغ مع المعنى المراد أحد أبرز وجوه إعجاز النظم القرآني؛ فـ "إذا ما كان صاحب التحليل البيانيّ لمفردات القرآن الكريم ناظرًا في مادة الكلمة القرآنية وعلاقتها بسياقها، والغرض المنصوب له البيان؛ فإنَّه أيضًا ناظر إلى صيغة الكلمة القرآنية، والعطاء الدلاليّ لها فى سياقها" [٣]؛ ولذا سوف أقف على تناسب المفردة القرآنية في سياقها من حيث صيغتها ووزنها؛ فمِن صُوَر **التناسب في المفردات: تناسب الصِيَغ**، وأعني به أن تكون الصيغ الواردة في السورة متفقة بصيغتها مع المقصود، ودالة على المعنى المطلوب.

١- تناسب صيغة الفعل الماضي﴿ أَعْطَيْنَاكَ ﴾:

الفعل هو مادلَّ على معنى في نفسه مقترن بأحد الأزمنة الثلاثة الماضي والحاضر والمستقبل[٤]، وللفعل أهمية ووظائف متعددة لعل أهمها تعبيره عن

---

(١) تفسير الماوردي = النكت والعيون (٦/ ٣٥٦)، وينظر: إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم، ابن خالويه، /٢١١ .

(٢) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين- بيروت، ط٤، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م، (بتر)،(٢/٥٨٤).

(٣) العزف على أنوار الذكر، /١٥٦.

(٤) ينظر: شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، ابن هشام، تحقيق: عبد الغني الدقر، الشركة المتحدة للتوزيع- سوريا، / ١٨.

الأحداث وأزمانها، والدلالة الزمنية تؤثر في إحداث الحدث من حيث وقوعه من عدمه واستمراره وانقطاعه.

وبالنظر إلى سورة الكوثر نجد أنها تكونت من ثلاث آيات قِصار واشتملت على ثلاثة أفعال، أحدها جاء في زمن الماضي، واثنين منها في زمن الأمر، **وكل فعل جاء متناسبًا ومتلائمًا مع سياق وروده؛ ليتحقق بذلك صورة من صور التناسب في السورة، وهي تناسب الأزمنة والصيغ مع المعاني**، وإليك بيان ذلك:

_ قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾، ورد الفعل ﴿ أَعۡطَيۡنَٰكَ ﴾ بصيغة الماضي ولم يرِد بالمضارع (سنعطيك)؛ لتحقق وقوع هذا العطاء؛ إذ المتوقع من الكريم في المستقبل كالمتحقق على وجه القطع، وليس أكرم من الله عز وجل ليكون الوعد عنده محققا ومقطوع بحصوله، وفيه إشارة إلى الراحة الكاملة والتسلية للنبي صلى الله عليه وسلم بنزول العطاء وتحققه.

وحيث إن السورة نزلت في هذا المبغض الذي وصف النبي بـ﴿ٱلۡأَبۡتَرُ﴾، ناسب ذلك أن يكون التعبير بالعطاء بصيغة الماضي الدالة على تحقق الوقوع؛ وذلك مُبالغةً وإدخالًا للسَّعادة على قلب الرسول–صلى الله عليه وسلم، وإشعاره بأنَّ العطاء الخير الكوثر حاصلٌ لا ريب في وقوعه، " ويستخدم الماضى مكان المضارع إشارة إلى تأكيد وقوع الفعل، حتى كأنه قد وقع، وذلك يكون فيما يستعظم من الأمور " (١)، وفيه إيحاءٌ بالراحة الكاملة لنُزول العَطاء وتحقُّقه، إضافة إلى عظم هذا العطاء.

كما أن التعبير بـ﴿ أَعۡطَيۡنَٰكَ ﴾ بصيغة الماضي يدل على أن الإعطاء كان حاصلا في الماضي، وقد تمثل في الرعاية والتوفيق الإلهي، وبهذا يكون الإعطاء واقعًا وحاصلًا في المستقبل؛ لأنه بمعنى الوعد من الله إلى نبيه صلى الله عليه وسلم في حياته المستقبلية المتمثلة بذريته وكثرتها في الدنيا، أو في الآخرة إذا

(١) من بلاغة القرآن، أحمد أحمد عبد الله البيلي البدوي، نهضه مصر–القاهرة،٢٠٠٥م، /٩٠.

كان بمعنى الحوض في الجنة، وفي هذا مزيد طمأنة للنبي الكريم–صـلى الله عليه وسلم–.

ومما يؤكد تناسب التعبير بالماضي مع سورة الكوثر ما ذكره صاحب حاشية الصاوي على الجلالين؛ حول الجمع بين الماضي في آية الكوثر ﴿أَعْطَيْنَاكَ﴾ والمضارع في آية الضحى﴿يُعْطِيكَ﴾، قال: " إن قلت إنه عبر هنا بالماضي، وفي الضحى بالمضارع حيث قال:﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾ [الضحى:٥] ؛ فكيف الجمع بينهما؟ أجيب: بأن ما في الضحى باعتبار التمكن والاستيلاء، وذلك يحصل في المستقبل يوم القيامة، وما هنا باعتبار التقدير الأزلي"(١)، ولا مانع مِنْ حَمْل الآيتين على الحياة الدنيا وتحقيق الوعد.

٢– تناسب صيغة فعلي الأمر﴿ فَصَلِّ ﴾، ﴿وَانْحَرْ ﴾:

ثم تتنوع الصياغة في السورة فيأتي التعبير بالأمر في الفعلين **(صل)، (وانحر)** وكلاهما فعل أمر دلَّ على النصح والإرشاد، وقد دلَّ الفعلان **(صل، وانحر)** على المستقبل القريب المتصل بالحاضر؛ لأنه أمر صادر من الله – تعالى– واجب التنفيذ بسبب النعمة التي أعطاها الله لنبيه متمثلة في الكوثر.

ومجيء الفعلان بصيغة الأمر الذي يحمل معنى النصح والإرشاد يتناسب مع العطاء الإلهي، والمِنَن التي أعطاها سبحانه وتعالى لنبيه؛ ذلك لأن عطاء الكوثر المتحقق في الماضي والمستقبل؛ استوجب شكر الله على هذا العطاء؛ فكان الأمر الذي فيه الحث على فعل الخير، ومداومة الطاعة والعبادة لله تعالى الذي له الفضل.

---

(١) حاشية أحمد بن محمد الصاوي على تفسير الجلالين، للإمامين العظيمين الجلالين:جلال الدين المحلى، والإمام السيوطي، راجع تصحيحه: فضيلة الشيخ: علي محمد الصباغ، دار الجيل، بيروت، (٣٣٩/٤).

٣_ تناسب صيغة مفردة ﴿ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ مع المعنى المراد:

بالنظر نجد أن مفردة الكوثر جاءت على صيغة **(فوعل)**، وقد تولدت من صيغة المبالغة فعيل؛ فالأصل(كثير)، لكن جيء بالمفردة على صيغة (فوعل) للدلالة على المبالغة وتكرار حدوث الفعل (العطاء)؛ فـ " اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان ثم نقل إلى وزن آخر أكثر منه؛ فلا بد أن يتضمن من المعنى أكثر مما تضمنه أولًا؛ لأن الألفاظ أدلة على المعاني، وأمثلة للإبانة عنها؛ فإذا زيد في الألفاظ أوجبت القسمة زيادة في المعاني، وهذا لا نزاع فيه لبيانه" [(١)]، علاوة على أن صيغة المبالغة دلت على أن هذا الوصف ثابت ودائم ملازم للنبي صلى الله عليه وسلم لا ينفك عنه، وقد تناسبت تلك الصيغة الدالة على الكثرة والمبالغة في كل شيء مع مقصود السورة؛ فالنبي صلى الله عليه وسلم أعطي الكوثر أي: الخير الكثير من كل شيء، وعدوه حُرِم من ذلك كله؛ فقد انقطع عنه كل خير.

لذا؛ يمكن القول: إن مجيء المفردة تحمل تلك الدلالة وعلى صورة تلك الصيغة دلَّ على أن خيرات الدنيا والآخرة قد جُمِعَت للنبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى:﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾؛ ففي الدنيا وعد من الله عز وجل بنصر نبيه على أعدائه، وأنه لا يصل إليه مكرهم، أما في الآخرة فالآية كالبشارة للنبي بالجنة التي بها نهر الكوثر.

٤_ تناسب صيغة ﴿ شَانِئَكَ ﴾ مع المعنى:

المعنى اللغوي للمفردة: الشَّناءة مثل الشَّناعةِ: البُغْضُ، والشانئ: المبغض، والشنأن: البغض، يقال: شنئته بقذرته بُغضًا له، ومنه اشتق: (أزد شنوءة)، وقوله: (شنآن قوم) أي: بغضهم[(٢)].

---

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير، تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع– الفجالة– القاهرة، (١٩٧/٢).

(٢) ينظر: لسان العرب،(شنأ)، والمفردات،/٤٦٥.

بالنظر يتجلى أن مفردة﴿ شَانِئَكَ ﴾ أتت بصـيغة **اسـم الفاعل**، وهي العبارة الوحيدة في القرآن الكريم من صـيغة اسـم الفاعل من (شـنئ)، وقد جاءت الصـياغة موافقة للمعنى المطلوب أتم توافق؛ ذلك لأن من المِنَن الإلهية التي اشتملت عليها السورة تخليد ذِكْر نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم في الأذهان، وإبقاء أثره، ونفي تلك الصـفة الذميمة التي نَعَتَهُ بها ذلك الشـانئ وهي﴿ ٱلْأَبْتَرُ ﴾ ؛ فجاءت مفردة ﴿ شَانِئَكَ ﴾ بتلك الصياغة لتكون معقدًا أساسيًا من معاقد السورة الكريمة؛ وجاءت الصـياغة على اسـم الفاعل؛ لتدل على المعنى متلبسًـا بالذات، واسـتخدام النظم القرآني لاسـم الفاعل دل على دوام تلك الصـفة واسـتمرارها، وكأن هذا الوصف ثابت ملازم لهذا المبغض، وغالب عليه ومستقر في نفسه.

وَمِنْ ثَمَّ يمكن القول: إن لفظ ﴿ شَانِئَكَ ﴾ بما يفيده من ثبوت ومداومة ناسب مقصود السورة من نفي تلك الصفة عن النبي الكريم وإثباتها لمبغضه، وهي منة من المنن الكثيرة التي اشـتملت عليها السـورة، وَمِنْ ثَمَّ فقد أوثر التعبير باسـم الفاعل الذي يحمل دلالة الفعل على الحدوث، ودلالة الاسـم على الاسـتمرارية والثبات والدوام، وفي ذلك مبالغة في الوصف تتناسب مع جرم وشناعة ما تَقَوَّل به هذا المبغض على النبي صلى الله عليه وسلم من وصفه بالأبتر.

وتجدر الإشـارة إلى أن النظم القرآني آثر الإعراب بالصـفة دون الاسـم؛ فقال: ﴿ شَانِئَكَ ﴾ ولم يذكر المبغض باسـمه وإنما ذكره بصـفته، وهي: العداء والبغض؛ وذلك ليتناول كل من كان في مثل حاله، أي: يتناول كل من كان في هذا الوصـف، وفيه إشـارة إلى أن ما أظهر ذلك المشـرك ليس إلا الشـنآن والبغض والحسد، وفيه أيضـا بيان تحقير لذلك المشرك الذي وصـف الرسـول الكريم بالبتر، يقول الإمام الزمخشـري رحمه الله–تعالى–: " وإنما ذكره بصـفته لا باسـمه؛ ليتناول كل من كان في مثل حاله، من كيده بدين الحق ومحاله، وفيه أنه لم يتوجه بقلبه إلى الصدق ولم يقصد به الإفصاح عن الحق، ولم ينطق إلا عن الشنآن الذي هو

توأم البغض والحسد، وعن البغضاء التي هي نتيجة الغيظ والحرد" [١]، " وكذلك وسَمَه بما ينبئ عن المقت الأشد، ويدل على حنق الخصم الألدّ" [٢].

٥- تناسب مفردة ﴿ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ صياغة مع المعنى:

مِنْ التناسب في الصيغ مجيء وصف المبغض بصيغة التفضيل؛ حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ۝٣﴾؛ فـ﴿ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ أفعل تفضيل من البتر، وقد جاء هذا الخبر بصيغة اسم التفضيل دون اسم المفعول (مبتور)، وتناسبت تلك الصيغة مع المقصود من السورة؛ ذلك لأن لفظ الأبتر بمجيئه على صيغة التفضيل، وتعريفه بالألف واللام، ومجيء الضمير (هو) قبله مؤذن بأن المقصود به رد كلام صادر من مُعَين، وحكاية لفظ مراد بالرد، قال الواحدي: " نَزَلَتْ فِي (الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ)، وَذَلِكَ: أَنَّهُ رَأَى رسول اللَّه- صلى اللَّه عليه وسلم- يَخْرُجُ مِنَ الْمَسْجِدِ، وَهُوَ يَدْخُلُ، فَالْتَقَيَا عِنْدَ بَابِ بني سَهْمٍ، وتحدَّثنا وَأُنَاسٌ مِنْ صَنَادِيدِ قُرَيْشٍ فِي الْمَسْجِدِ جُلُوسٌ. فَلَمَّا دَخَلَ الْعَاصُ قَالُوا لَهُ: مَنِ الَّذِي كُنْتَ تُحَدِّثُ؟ قَالَ: ذَاكَ الْأَبْتَرُ، يَعْنِي رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، وَكَانَ قَدْ تُوُفِّيَ قَبْلَ ذَلِكَ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، وَكَانَ مِنْ خَدِيجَةَ، وَكَانُوا يُسَمُّونَ مَنْ لَيْسَ لَهُ ابْنٌ: أَبْتَرَ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ السُّورَةَ" [٣].

على أن اسم التفضيل هنا لم يأتِ ليفاضل شيئًا على آخر في أصل الوصف المشترك (البتر)، وإنما ورد لمجرد الوصف وقصر الصفة على الموصوف، ويلاحظ أن اسم التفضيل هنا مجرد [٤] غير مصرح بالمفضول، وقد أدَّى هذا إلى تنويع المعنى في الآية الكريمة؛ فَحَذْف المفضول جاء لتذهب النفس فيه كل مذهب، وليكون الكلام ردعا وموجها عاما لكل شخص يؤذي رسول الله

(١) الحرد: الغضب. تاج العروس، (١٧/٨)، وإعجاز سورة الكوثر، الإمام الزمخشري،/٥٩.

(٢) إعجاز سورة الكوثر، الإمام الزمخشري،/٦٠.

(٣) أسباب النزول، الواحدي، تحقيق: زغلول،/ ٤٩٤.

(٤) أعني بالمجرد هنا: الذي لم يذكر معه المفضول.

صلى الله عليه وسلم؛ فكل من يؤذيه يستحق أن يوصف بهذا الوصف، وليس فقط هذا الشـــانئ المذكور في الآية، وفي هذا بيان لعظم مكانة النبي صـــلى الله عليه وسلم ورفعا لشانه.

كما أن صـــيغة التفضـــيل هنا ﴿ٱلْأَبْتَرُ﴾ وردت مسـلوبة المفاضـلة؛ فهي بمعنى اسـم المفعول(مبتور)، وإنما أوثر التعبير بها على صـورة اسـم التفضـيل؛ لإفادة قوة هذا الوصف في الموصوف المحذوف(الشانئ)؛ فهذا المبغض لرسول الله صـلى الله عليه وسلم تحققت فيه تلك الصـفة بصـورة قوية مؤكدة بلغت حدا كبيرا، ويؤكد ذلك مجيء تلك الصفة معرفة بالألف واللام للدلالة على التأكيد، علاوة على أن تعريفة باللام دال "على حصـــول هذا الموصـــوف له بتمامه، وأنه أحق به من غيره" [1].

وقد يكون انتقاء صيغة التفضيل هنا فيه دلالة على عدم قصر تلك الصفة على من انقطع نســـله فقط؛ بل جيء بها ليدل على أن الأبتر هو من انقطع عن كل خير؛ فجاءت صـيغة التفضـيل هنا لتصـرف مراد القائل عن الأبتر الذي هو عديم الذكر إلى ما هو أجدر بالاعتبار وهو ناقص حظ الخير من كل شـيء، يؤكد هذا ما ذكره أهل التفسـير حول المراد بمعنى الأبتر؛ حيث قيل: " الأبتر هنا: الذي لا عقب له ولا نســـل، وقيل: الأقل الأذل المنقطع دابره [2]، وقيل: معنى الأبتر: الحقير الذليل ... وقيل: معناه الفرد الوحيد، وقيل: هو الذي لا خير فيه حتى صار مثل الأبتر[3]، كما يؤكده اسـتخدام الوصـف (شـانئ) دون الاسـم ليفيد العموم ولا يخصص شخص بعينه.

* * *

(١) التفسير الكبير، لابن تيمية، (٥٠/٧) .

(٢) تفسير الطبري، تحقيق: شاكر، (٦٥٦/٢٤) .

(٣) تفســـير الماوردي= النكت والعيون (٦/ ٣٥٦) ، وينظر: إعراب ثلاثين ســـورة من القرآن الكريم، ابن خالويه، /٢١١ .

ثالثًا: التناسب الصوتي[١]

يعد التناسب الصوتي أحد أهم وجوه إعجاز المفردة القرآنية؛ إذ نرى تآلفا وتناسبا بين أصوات حروف المفردة والمعنى المقصود، وتلاؤم أصوات تلك الحروف مع السياق؛ ولذا "عُنِيَ أهل العلم بالقرآن الكريم بمحاولة استكشاف تناسق وتناسب الكلمة القرآنية فى سياقها .... من حيث صورتها الصوتية" [٢].

١- التناسب الصوتي للمفردة ﴿إِنَّآ﴾:

من التناسب الصوتي في المطلع: أن السورة الكريمة بدأت بالمفردة ﴿إِنَّآ﴾، وإذا ما تَحَسَّسْتَ وَقْعَ إيقاع ذلك التأكيد المُسْتَفْتَح به البيان، والحامل إلى قلب المخاطب فيضًا من اليقين بتحقق هذا العطاء، نرى أن حرف الهمزة الذي بدأت به السورة من حروف الحلق وهو أشد الحروف؛ إذ يتميز بصفتي الشدة، والجهر، وتعد أثقل الحروف خروجًا؛ لأن مخرجها أبعد ما يكون عن منتهى الكلام؛ إذ تخرج من أقصى الحلق[٣]، ثم النون وما تتصف به من الجهر، والغنة.

فصوت الهمزة في **(إنا)** الداخل على (نا) الدالة على العظمة المحدث في الضمير عظمة إعرابية، وفي القلب عظمة إيمانية بتحقق البشرى المتآخية مع الوعد الإلهي بالعطاء **(إنا أعطيناك الكوثر)**، هذا التفاعل الدلالي بين مدلول الهمزة ومدلول **(نا)** الذي يُشعر بالامتنان وعظيم العطاء، بل وتعظيم المتكلم وهو الله سبحانه وتعالى، يصوره تناغ بين صوت الهمزة بكل ما يحمله من قوة وجهر.

على أن بدء السورة الكريمة بهذين الحرفين وما يتصفان به تلك الصفات، يُقَدِّم للكلمة دفعة قوية في التأثير السمعي، أو ما يطلق عليه الجرس وأثره في بناء

---

(١) جدير بالذكر أن التناسب الصوتي هنا خاص بالتناسب الصوتي لمفردات السورة ، بوصفه نوعا من أنواع التناسب في المفردات، أما التناسب الصوتي في المطلب الثاني من المبحث الأول؛ فهو تناسب خاص بحروف السورة الكريمة كلها، والفاصلة.

(٢) العزف على أنوار الذكر، /١٦٠.

(٣) خروج الصوت من أقصى الحلق ثم خروجه من الفم هو السبب في ثقل الهمزة.

الكلمة وتأثيرها على السـامعين، فالمفردة بدأت قوية شـديدة تلفت الانتباه، وتجذب السمع، وتقرع الآذان لِمَا يأتي بعدها، وَمِنْ ثَمَّ يأتي العطاء الكوثر بعد أن تهيأت له النفس؛ فيستقر في الأذهان، ويتمكن في النفس فضل تمكن.

٢- التناسب الصوتي للمفردة ﴿أَعْطَيْنَاكَ﴾:

بالنظر إلى مفردة ﴿أَعْطَيْنَاكَ﴾ نجد أن إيقاع صـوت القلقلة في **(الطاء)** مع **الهمزة** الحلقية في مطلع المفردة، وما تحدثه مع انفتاح صـــوت **(الثاء)** في (الكوثر)، ثم مع تكرار صوت الراء في الفاصلة، كل هذا يؤكد أن هذا العطاء وافر عظيم، لا نظير له.

هـذا، وبـإمعـان النظر تبين أن تَجَـاوُر المفردة﴿أَعْطَيْنَاكَ﴾ مع المفردة ﴿إِنَّآ﴾ في قولـه تعـالى:﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ﴾ أنتج نوعًـا من المـد يســمى المـد المنفصـــل؛ حيث ورد حرف المد في آخر الكلمة﴿إِنَّآ﴾، والهمزة في أول الكلمة التي تليها﴿أَعْطَيْنَاكَ﴾؛ فالتقي الضـــمير **(نا)** في ﴿إِنَّآ﴾ مع حرف الهمزة في ﴿أَعْطَيْنَاكَ﴾؛ حيث المد المنفصل مع حرف الغنة في **(إن)**.

على أن المد المنفصـــل هنا يمد حركتين أو أربع حركات؛ مما يدل على عدم الطول في النفس، وهذا يتناســـب مع العطاء الذي لا يحتاج إلى تأخير أو طول؛ بل إن النبي–صـلى الله عليه وسـلم– في أشـد الحاجة إلى هذا العطاء دون توان أو تراخ؛ ولذا ناسـب ذلك أن يكون المد في المفردة من المد المنفصـل الذي يمد حركتين أو أربع؛ لتتناسـب السـرعة في الأداء اللفظي والنطقي مع السـرعة في نزول العطاء، وهنا يظهر التناسـب بين قوة وقِصَـر المشـهد وبين ظلال حرف المد في المفردة.

وبالجملة فإن المشهد لمَّا كان متسما بالسرعة والحاجة إلى العطاء والقصر الزمني، ناسـب ذلك أن يؤتى فيه بالمد المسـتغرق في نطقه للزمن القصـير؛ مما

يوحي أن هناك تناسبًا تامًا بين قصر مشهد العطاء وحرف المد الذي يمد بمقدار حركتين أو أربع حركات.

٣- التناسب الصوتي لمفردة ﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾:

إن هذا المفردة هي المفردة الأم أو رحى السورة ومعقده الأساس، وبالنظر نرى أنها تكونت من حروف امتازت بصفات تتناسب مع أهميتها؛ فشدة صوت **(الكاف)** فيها من ناحية، وجهر صوت **(الواو)** فيها من ناحية أخرى، مع طبيعة تكرار حرف الراء، كل هذا جعل المفردة شحنة زاخرة بالعطاء الكثير الذي أنعم به الله عز وجل على النبي صلى الله عليه وسلم، فالمفردة تُبيِّن كثرةَ العَطاء، وأنَّه لا حَدَّ له.

ـ ومن التناسب الصوتي أيضا: ما نلاحظه مِنْ تَسَاوِي تكرار طبيعة الأصوات المشكلة لمفردة﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾؛ إذ تقوم المفردة على الأصوات الآتية (الكاف، والواو، والثاء، والراء)؛ فالكاف صوت مهموس" انفجاري لا تهتز معه الأوتار الصوتية" [(١)]، أما الثاء فهو صوت مهموس أيضا، في حين أن الواو صوت مجهور" رنيني يعتمد على التجويف الأنفي؛ إذ يكون ممر الفم مغلقا عن طريق نزول الطبق (أي الحنك اللين) إلى الأسفل، ويسمى أيضا صوتًا خيشوميًّا" [(٢)]، أما الراء فهو صوت مجهور لثوي، ومن هنا يمكن ملاحظة تساوي تكرار طبيعة الأصوات المشكلة للفظة (كوثر)؛ فعدد أصوات الهمس ناسبها عدد أصوات الجهر على التوالي؛ فهذه اللفظة حملت صوتين مهموسين تبعهما صوتان مجهوران.

على أن التساوي بين أصوات الهمس والجهر في المفردة الأم يشير إلى التناسب والاتزان في العطاء، وأن عطاء الله –تعالى– مع كثرته ووفرته إلا أنه

(١) معجم علم الأصوات، د: محمد علي الخولي، ط١، ١٤٠٢هـ،١٩٨٢م، /٣٠.

(٢) السابق،/٣١ .

عطاء منظم متلائم، لا إفراط فيه أو تفريط، عطاء مبني على الحكمة والقدرة والقوة التي طالما اتصف بهما العلي القدير.

ـ من التناسب الصوتي في المفردة أيضا: أنه إذا نظرنا إلى الكلمة الأم في هذه السورة الكريمة ﴿ ٱلْكَوْثَرَ ﴾ نجد تآلف أصوات حروفها مع صوت الراء (ك، و، ث، ر)؛ ذلك لأن صوت الكاف طبقي شديد مهموس، وصوت الواو شفوي مجهور نصف حركة مرقق، والثاء مهموس رخو منفتح، والراء صوت لثوي تكراري مجهور[1]، وهذا الاجتماع للأصوات البعيدة المخارج بكلمة (كوثر) جاء لطبيعة تأليفية متناسقة لأداء الوظيفة الصوتية لأصوات الكاف، والثاء، والواو، مع صوت الراء؛ فنجد تفاوتا في الدرجات بين القوة والشدة في المفردة الواحدة، عبر اختلاف المخارج والصفات، ودقات ورنات الأصوات المختلفة؛ مما يؤدي إلى مزيد تمكين للمعنى في النفس، ووقوف ذهن المخاطب على المفردة؛ للإحاطة بأسرارها وإعجازها.

كل هذا التناسب الصوتي السابق تجده في الجملة المُسْتَفْتَح بها البيان ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ ﴾، الدال على البُشرى والأمل والفرج والطمأنينة في قلب النبي المُخاطَب، وقلب كل تالٍ لتلك السورة، مُصْغِيًا بقلبه إلى إيقاع معانيها الروحية، ومعانيها الإيمانية التي تعيد النفس إلى سكينتها وأُنسها بخالقها، وهذا ما قرَّت به عين النبي صلى الله عليه وسلم بعد هذا العطاء الكوثر الذي لا يعادله عطاء[2].

---

(١) ينظر: مناهج البحث في اللغة، د: تمام حسان، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٠م ، ٩٥/، ١٠٤، ١٠٧.

(٢) ينظر: العزف على أنوار الذكر، /٢٦٩.

٤- التناسب الصوتي لمفردة ﴿ٱلۡأَبۡتَرُ﴾:

تتآزر الدلالة المعجمية مع الدلالة الصـــوتية لحروف الكلمة ﴿ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ على المعنى المراد؛ فتأتي الباء بصـــوتها الانفجاري الشـــديد القوي لتؤكد قوة تلك الصفة وتحققها في هذا المبغض، كما أنها من حروف القلقلة التي تبعث في النفس اضـطرابا شـديدًا وقويًا، ثم إن الحرف جاء سـاكنًا، وهذا السـكون يتواءم مع صـوت الباء القوي المجهور، فإن في سـكون الباء صـمتًا عن أي كلام يمكن أن يقال بعد هذا الوصـف البغيض الذي وَصَـف به القرآن هذا الشـانئ، وفي إطباق الشـفتين بالسـكوت أيضـا قوة تشـير إلى بلوغ الغاية في هذا الكلام، ويؤيد هذا مجيء التاء عقب الباء مباشـرة ، وهي من الأصـوات الانفجارية، ثم الراء بما تحمله من تكرار تشـير إلى أن هذا الوصـف دائم مسـتمر متكرر، لم ولن ينقطع عن هذا المبغض، وهكذا جاء الرد قويًا وحاســمًا من الله-عز وجل- على هذا المبغض لرســول الله، ويحمل في طياته ما يؤكد مكانة رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ربه عز وجل.

* * *

رابعًا: التناسب الشكلي

للقرآن الكريم خصـوصـيته المقدسـة التي لا يشـاركه فيها بَيَان آخر؛ فطرائق كتابة ورسـم المفردة القرآنية خصـوصـية من خصـوصـياته، وتعد أحد وجوه إعجاز القرآن الكريم؛ حيث إن " طرائق الأداء الكتابيّ لبعض كلماته لا تخضـــع لمعايير التصـــوير الكتابيّ لتلك الكلمات فى لغة البيان الإنســانيّ، .... وفي تلك الصـــورة الاصطفائية لكتابة تلك الكلمات القرآنية معاني قرآنية طريفة لطيفة [١].

وســأقف في هذا المطلب على مفردات الســورة الكريمة التي تناســبت برسـمها وشـكلها مع المقصـود والسـياق والمقام الواردة فيه؛ فجاء رسـمها على

(١) العزف على أنوار الذكر، /١٦١.

خلاف مقتضى الظاهر المعهود في الكتابة العربية، إلا أن هذا الرسم كان عنصرًا في بناء المعنى وتصويره.

١ – التناسب الشكلي للمفردة ﴿ أَعْطَيْنَاكَ ﴾:

اتضح في الوقفات السابقة أن مفردة ﴿ أَعْطَيْنَاكَ ﴾ تناسبت صياغة، ودلالة، وبإمعان النظر تبين أن وجه تناسبها لايقف عند الصياغة والدلالة فقط، بل يتعدى ذلك إلى الرسم والشكل؛ فقد جاءت المفردة مرسومة بحذف الألف بعد النون **(أعطيناك)**، ورسمت صغيرة فوق النون؛ فجاءت هكذا ﴿ أَعْطَيْنَاكَ ﴾، وهذا الرسم يتناسب مع المعنى؛ ذلك لأن الإسراع في الرسم أسرع في إفراغ العطاء من الله عز وجل؛ فالله تعالى أراد أن يبين السرعة الشديدة في إنزال المنن والعطاءات الكوثرية التي شملتها السورة؛ فجاء رسم الكلمة مختصرا في الكتابة؛ لينبئ بهذا الإسراع، وفي هذا طمأنة لقلب النبي صلى الله عليه وسلم .

على أن هذه المفردة هي الوحيدة في السورة التي رسمت بحذف من حروفها؛ لتفردها وليكون عطاء الله لنبيه متفردًا لا نظير له؛ فإن ما تفرد في الرسم والشكل لا بد أن يكون متفرد في معناه ودلالته.

٢ – التناسب الشكلي للمفردة ﴿ شَانِئَكَ ﴾:

بالنظر نرى أن المفردة ﴿ شَانِئَكَ ﴾ رسمت كاملة فجاءت ألف المد مثبتة بعد الشين؛ لتوحي بالبغض الشديد الذي يكنه هذا الأبتر لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكأن في امتداد الصوت بالألف بيان وإشباع لهذا البغض، ومن ثم استحق الوصف بالأبتر.

وهكذا يتجلى إعجاز النظم القرآني في تناسق وتناسب المفردة صياغة ودلالة وشكلا مع المعنى والمقصود؛ فسبحان الله العظيم منزل الكتاب الكريم .

* * *

المطلب الرابع: التناسب في الأساليب

" لا ريب فى أن مفردات أى لغة لم توضع لتعرف معانيها فى أنفسها، بل لأن يُنَسَّق بعضها مع بعض، فيتولد من ذلك النسق معنى يؤدى به الغرض، ويصور به الحال، وأدْنَى صُوَر ذلك النسق المحقق ذلك المعنى المُؤَدَّى المُصَوَّر إنما يسمى (جملة) " (١).

والجملة فى سياق التخاطب مثل المفردة فى بناء الجملة، تحتاج إلى الوقوف عليها، وبيان مدى تناسبها مع المعنى المطلوب وتلاؤمها مع السياق والمقام الواردة فيه، وأعني بالجملة هنا: الكلام الذي يتم كلامه وليس الآية؛ لأنه " إذا كان القرآن الكريم قد بنى سُوَرِه من آيات، فإنَّ بناء الآية لا يخضع ابتداء وانتهاء إلى معيار موضوعى من ظاهر المعنى أو التركيب أو النسق الصوتي، بل من وراء ذلك أمرٌ قد تعجز عقولنا عن وعيه أو عباراتنا عن بيانه؛ فانظر فى قول الله- سبحانه وتعالى .... ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾[الصافات: /١٥١، ١٥٢]....،﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ ﴾[الدخان: /٤٣،٤٤] .... أنت لا تراه قائمًا على معيار من تمام معنى أو اتساق تركيب، وعلى هذا لا يحسن إتخاذ الآية إطارًا لتحليل التراكيب، بل الأقرب اتخاذ الجملة، ثم العبارة ذات الجمل المنسوقة على نهج يحقق للمعنى تمامه" (٢).

ومِنْ ثَمَّ فإن هذا المبحث سيقوم على بيان وعرض الأساليب التي وردت في السورة الكريمة، والتي تُستمد من الجملة التي تَمَّ بها المعنى، ثم بيان مدى تناسب الأسلوب مع المعنى الموضوع له، والسياق الذي أتى فيه، ثم بيان التناسب بين الأساليب ذاتها في السورة الكريمة أو التناغي في الأساليب البلاغية إن وُجِد.

---

(١) العزف على أنوار الذكر، /١٦٨.

(٢) السابق، /١٦٩.

وإليك بيان ذلك تفصيلا :

١- **أسـلوب التوكيد:** افتُتِحَت السـورة بأسـلوب التوكيد ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ ﴾؛ للاهتمام بالخبر، والإشـعار بأنه شـيء عظيم يسـتتبع الإشـعار بتنويه شأن النبي صلى الله عليه وسلم(١).

وقد اجتمع في المطلع توكيدان، هما: التوكيد بالجملة الاسـمية، والتوكيد بـ**(إن)**، ولم تأت **(إن)** منفردة بل اتصل بها ضمير التعظيم **(نا)**، وفي ذلك إثبات للتوحيد وإثبات للعطاء، علاوة على أن فيه خصـوصـية بأن هذا العطاء من الله- تعالى، وأنه عطاء ثابت التحقق ومؤكد؛ ليدل على عظمة الله-تعالى

على أن هذا التوكيد جاء متناسبًا مع مقصود السورة؛ فالتوكيد دلَّ على تحقق العطاء واستمراريته ودوامه، كما أوحى بثُبوته، وكثرته، وسَعته، ونسبة العَطاء إلى الله تَكفِي لتحقق جميع هذه المعاني؛ فقد أعطاه الله-تعالى- من الفَضـائل والخيرات ما لا يُدرِكُه العقل؛ لذا ناسـب ذلك أن يأتي توكيد العطاء مقترنا بضـمير المتكلم الدال على العظمة؛ للإشـعار بأن ما أتاه الله لرسـوله عظيم يناسـب عظمة المتكلم عز وجل.

هذا، وقد جاء التوكيد والحال أن المخاطب بهذا الكلام هو النبي صـلى الله عليه وسـلم ولم يكن مُنكرًا ولا شـاكًا فيما خاطبه الله-تعالى-، ومع ذلك جاء النظم بأسلوب التوكيد؛ ومقتضى ذلك ليس الإنكار أو الشك، وإنما هو التسلية بثبوت ذلك العطاء، وكثرته وديمومته.

---

(١) وقد جاء هذا الافتتاح في أكثر من سـورة، وهو افتتاح لأمر عظيم ومِنَّة كبيرة، كقوله تعالى في سورة القدر: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١ ﴾ ، وفي سورة الفتح: ﴿ إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ۝١ ﴾، وفي سورة نوح: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١ ﴾ .

ومن التناسب الأسلوبي[١] **بين المطلع والختام: مجيء ختام السورة بأسلوب التوكيد أيضا**؛ حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣﴾، وفيها نوعا تأكيد، أحدها: تصدير الجملة بـــ ﴿إِنَّ﴾، ثانيها: الإتيان بضمير الفصل ﴿هُوَ﴾ الدال على قوة الإسناد والاختصاص، على أن حرف التوكيد ﴿إِنَّ﴾ جارٍ مَجْرَى القسم؛ فقد كان ما أخبر به الرسول هو الحق والصدق؛ إذ كان مبغضه هو الأبتر المقطوع عن كل خير المبتور من رحمة الله عز وجل في الآخرة.

ومقتضى الإعراب بالتوكيد في ختام السورة هو: مزيد التسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، ولإكمال الوعيد لذلك الشانئ؛ لأن التوكيد جارٍ مجرى القسم؛ ففي تأكيد هذه الجملة بـــ﴿إِنَّ﴾ ما لا يخفى من الاعتناء بشأن الخبر ﴿الْأَبْتَرُ﴾، وقيل: جيء بالتوكيد لرد استبعاد السامع هذا العطاء (أن يكون شانئه هو الأبتر)، وجائز أن يكون التوكيد لرد الإنكار؛ لذا جاء الخبر مسبوقا بضمير الفصل الدال على الاختصاص، ومُصَدَّرا بالألف واللام الدالة على كمال تحقق تلك الصفة.

وقد تناسب أسلوب التوكيد مع مقصود السورة؛ فوصف مبغض رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بأنه الأبتر أحد العطايا التي مَنَّ الله تعالى بها على رسوله صلى الله عليه وسلم؛ فهي إحدى المنن، ولذا ناسب ذلك أن تأتي مؤكدة لتدل على تحقق وتأكيد العطاء وثبوته، ولتدل على أن عطاء الله نبيه يشمل عطاء الدنيا بجانب عطاء الآخرة فيهدأ القلب ويستكين .

ـ مقتضى البيان بالتوكيد في المطلع والختام: هو اشتمالهما على وعد محقق من الله عز وجل لنبيه بأن عطاءه الكوثر، وأن شانئه الأبتر، وهذا العطاء الذي منحه إياه ليس مقصورًا على العطاء الدنيوي، بل يمتد ليشمل الآخرة؛ فكان كل من المطلع والختام بُشْرَى للنبي بما أعده الله له في الدنيا والآخرة، وكان توكيد الجملتين سبيلًا إلى بث مزيد من الثقة في قلب النبي، وبعث السكينة والطمأنينة

(١) يمكن أن نطلق عليه: (التناغي في الأساليب البلاغية).

في نفسه، ثم محو كل أثر من آثار مقولة المشركين بأنه عليه السلام أبتر مقطوع الولد والذكر؛ فالبيان القرآني جاء لإحياء روح اليقين بوعد الله في نفس مصـــطفاه، ودحض مزاعم المشركين التي كانت تهدف إلى زعزعة ثقته بربه عز وجل.

وقد جاء التوكيد في جملة البدء وجملة الختام، الجملتين اللتين اشـــتملتا على العطاء الدنيوي والأخروي، بعطاء الكوثر الذي يندرج تحته كل خير يمكن أن يكون في الدنيا والآخرة، وعطاء دنيوي بتخليد ذكره وبتر ذكر شـــانئه، ولما كانت الجملتان كذلك كان التوكيد خير طريق لأداء هذه المعاني وتثبيتها وتحقيقها في نفس النبي صـلى الله عليه وسـلم؛ ذلك لأن التوكيد كفيل بطمأنة قلب النبي وحري ببعث روح اليقين في نفسه ؛ فيشتد الأزر وتقوى النفس على تحمل أذى المشركين النفسـي والحسـي؛ لذا كان مجيء أسـلوب التوكيد من تمام التناسـب بين الأسـلوب والمعنى المراد .

٢- إيجاز الحذف:

في قوله تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ ﴾ إيجاز بالحذف، والتقدير: وانحر لربك أو: وانحر له، وحُذِفَ لدَلالة السِّياق عليه، يقول الإمام ابن عاشور: " وعطف﴿ وَٱنْحَرْ ﴾ على﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ يقتضـــي تقدير متعلقه مماثلًا لمتعلق ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾؛ لدلالة ما قبله عليه، كما في قوله تعالى:﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ ﴾ [مريم: من/٣٨] أي: وأبصر بهم؛ فالتقدير: وانحر له " [١].

ثم إن ابن عاشور بعدما قَدَّر المحذوف بالضمير **(له)**، عَدَل عن ذلك في موضع آخر وقدَّرَه بـــ﴿ لِرَبِّكَ ﴾؛ حيث قال: " والعدول عن الضمير إلى الاسم الظاهر في قوله:﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ دون **(فصـــل لنا)**؛ لِمَا في لفظ الرب من الإيماء

(١) التحرير والتنوير، (٣٠/٥٧٤، ٥٧٥) .

إلى استحقاقه العبادة لأجل ربوبيته، فضلا عن فرط إنعامه " [١]؛ لذا كان الأنسب أن يكون المُقَدَّر هو اسم الربوبية .

وفضلا عن دلالة السياق على المحذوف؛ فإن مقتضى الحذف قد يكون مراعاة لفواصل آيات السورة الكريمة؛ لتحقيق الانسجام الموسيقي بين فواصل الآيات التي يراعيها السياق القرآني ويعتني بها عناية واضحة؛ لِمَا لذلك من تأثير كبير على السمع، وَوَقْعٍ مؤثر في النفس، وقد يكون الحذف اعتمادًا على فطنة المسلم ويقظته؛ لأنه يدرك الغرض الذي تُساق له طاعة النحر وتقام له طاعة الصلاة؛ فهو لا شك الواحد الأحد رب السموات والأرض.

هذا، وقد جُعِل المتعلق ﴿ لِرَبِّكَ ﴾ بالصلاة دون النحر؛ لأن الصلاة أهم من النحر؛ إذ إنها لا تسقط بأي حال من الأحوال، بينما النحر لا يكون إلا مع الاستطاعة، علاوة على أن الصلاة لا تكون إلا عبادة ولا تكون غير ذلك، أما النحر فقد يكون للعبادة وقد يكون للأكل فقط دون العبادة؛ فلو قال: **(وانحر لربك)** لألزم أن يكون النحر فقط عبادة ولَمَا جَازَ لغير العبادة أبدًا.

ومن التناسب الأسلوبي أن جاء مطلع السورة مشتملًا على الإيجاز بالحذف أيضا، وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ ﴾؛ فجاءت مفردة ﴿ ٱلۡكَوۡثَرَ ﴾ صفة محذوفة الموصوف؛ فلم يقل: الحوض الكوثر، أو الأجر أو الخير وغيرها؛ ولعل عدم الذكر هنا جاء ليتناول أشياء كثيرة على طريقة الاتساع والمبالغة؛ ولذا وردت الأقوال الكثيرة في تفسير ﴿ ٱلۡكَوۡثَرَ ﴾ من نهر، والأتباع، والذكر والخير وغيرها، والكوثر بمعناه الوصفي يشمل كل هذا ويزيد؛ لأنه الخير الكثير المعطى له من الرب العظيم.

ـ تناسب أسلوب الإيجاز بالحذف مع مقصود السورة: لقد تناسب الإيجاز بالحذف مع المِنَن الجليلة والعطايا الربانية التي أكَّدت السورة عليها؛ ذلك لأن

(١) السابق، (٣٠/٥٧٤) .

الإيجاز بالحذف يجعل المعاني مُتســـعة لا يمكن أن يحدها حد، أو يتوقف عليها بوصـف دون آخر؛ فالحذف جاء لتذهب النفس فيه كل مذهب، ويتخيله كل سـامع بما شاء وبما يتناسب معه، على أن هذا أعطى سعة واتساعًا في مساحة العطاء الذي أكدت السورة عليه؛ فجاء الإيجاز بالحذف على أحسن وأتم ما يمكن أن يكون في الســورة الكريمة؛ ليتناســب المحذوف الذي لا يدرك كنهه، ولا يعرف حده مع العطاء العظيم والفضـل الواسـع الذي مَنَّ الله-تعالى- به على نبيه صـلى الله عليه وسلم.

٣-أسلوب الفصل والوصل بين الجمل:

جاءت جملة المطلع مفصـولة عن الآية الثانية، ولم يربط بينهما سوى فاء السببية في قوله تعالى:﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾، ومقتضى مجيء الجملتين مفصولتين هو اختلافهما خبرًا وإنشـاءً؛ فالمطلع جملة خبرية لفظا ومعنى﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ ﴾، والآية الثانية إنشـائية لفظًا ومعنى﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾؛ ففي الســورة الكريمة انتقال من الإخبار إلى الإنشاء؛ فلما اختلتفتا فُصِلَ بينهما، علاوة على أن الفصل بينهما يشير إلى أن الأفعال المأمور بها النبي صلى الله عليه وسلم ليست مرتبطة ارتباطًا كاملًا بالمَنّة الجليلة التي مَنَّ الله-تعالى- بها على نبيه في المطلع وهي إعطائه الكوثر، أقول: إن شـكر الله-تعالى- على نِعَمِه وتجسـيد ذلك الشـكر في الصلاة قائم دائمًا وأبدًا، ومستمر ولازم عند النبي-صلى الله عليه وسلم-، وليس له ارتباط بحســـنة أو عطاء أو غيره، إنما جاء الأمر هنا في الآية الثانية من باب التذكير فقط؛ ولذا فُصِلَ بين المطلع والجملة الثانية حتى لا يتوهم أن الشكر مرتبط ومتصل بعطاء أو غيره.

ومن التنـاغي في الأحوال والتراكيـب البلاغيـة: مجيء ختـام الســـورة مفصـولًا أيضـا عن الجملة السـابقة عليه؛ لاختلافهما خبرًا وإنشـاء؛ فجملة الختام خبرية لفظا ومعنى﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ۝٣ ﴾، والجملة التي قبلها إنشـــائية

لفظا ومعنى﴿ وَٱنۡحَرۡ ﴾؛ فالجملة جاءت مستأنفة لإتمام الكلام، وقد انقطعت الصلة بين جملة ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢ ﴾ الإنشائية، وبين جملة ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ۝٣ ﴾ الحبرية، وهذا الانقطاع تام بين الجملتين؛ فقد اختلفت الجملتان لفظا ومعنى واستؤنف الكلام من دون عاطف بينهما،﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ۝٣ ﴾ ، كما أن الفصل جاء لأن ختام السورة جواب عن سؤال تقديره: وماذا تكون عاقبة شانئه ومبغضه؟ فأُجِيبَ:﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ۝٣ ﴾ بالفصل دون الوصل أو العطف على ما قبلها.

على أن الفصل بينهما يشير إلى ما ذَهَبْتُ إليه في الإعراب عن الفصل في المطلع؛ ذلك أن ختام السورة مِنَّة أخرى جليلة وعطاء عظيم تفضَّل الله تعالى بها على نبيه، وهي: قطع ذِكْر شانئ النبي–صلى الله عليه وسلم– من الدنيا وتخليد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم؛ فجاء الأمر بالنحر مفصولًا عن المنة والعطاء حتى لا يتوهم ارتباطهما ببعض، وأن النحر موقوف ومرهون بعطاء من الله–تعالى–، بل هو قائم دائم مستمر، والأمر هنا للتذكير فقط .

هذا، ومع مجيء جملتي المطلع والختام مفصولتين، إلا أن الوصل بين الجُمَل لُوحِظَ في الآية الثانية في السورة الكريمة﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢ ﴾؛ حيث وُصِلَ بين هذه الجملة الإنشائية﴿ وَٱنۡحَرۡ ﴾، وبين سابقتها ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ بواو النسق دلالة على الوصل؛ لِمَا بين الجملتين من اتصال وثيق وارتباط وطيد؛ فالجملتين إنشائيتين لفظًا ومعنى وهذا مَاسَوَّغَ الوصل بينهما، علاوة على أن فاعلهما واحد وهو الضمير المستتر فيهما وجوبا تقديره **(أنت)**؛ فالمأمور في الجملتين هو رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وهكذا يتجلى في البيان القرآني تنويع رائع في أساليب التعبير في السورة المباركة على قِصَرِها وَوَجَازَتِهَا .

هذا، وبعد النظر في الأساليب الواردة في سورة الكوثر، وبيان مدى تناسبها مع مقصـــود الســـورة والمعنى الواردة فيه **يجدر بنا أن نقف على النمط التركيبي الرئيس في تصـوير المعنى للسـورة الكريمة**؛ لأنه من فقه التحليل البياني للسـورة الكريمة، يقول شيخي عند التحليل البياني لتراكيب أي سورة في النظم الكريم: "علينا أن نسـتبصـر النمط التركيبي الرئيس في كل صـورة من صـور المعاني التي نحن بصدد تحليل تراكيبها تحليلا بيانيا" (١) .

وبالنظر نرى أن النمط التركيبي الرئيس لســـورة الكوثر كان أســـلوب التوكيد؛ فقد جاء في مطلع السورة وختامها، ولم يكن التوكيد بمؤكد واحد بل تعداه في المطلع والختام إلى مؤكدات عدة.

على أنـه يمكن القول: إن النمط التركيبي الرئيس لســـورة الكوثر كـان الجملة الاســـمية الخبرية التي اشـــتملت على مؤكدات عدة؛ فنرى هذا النمط في المطلع وفي الختام، وهذا النمط يتناسـب مع المعنى والسـياق؛ لأن السـورة الكريمة تنتصر للنبي صـلى الله عليه وسلم وتبشره بمِنَن وعطايا، وناسب ذلك أن تُلْقَى إليه صـلى الله عليه وسلم في صـورة خبرية مؤكدة؛ لتبعث في نفسـه الطمأنينة والسكينة والهدوء، بعد هذا الوصف الشنيع الذي وصفه به هذا الشانئ، ولمزيد طمأنة اقترنت العطايا بضـمير المتكلم (**إنا**) الدال على أن العطاء من الله–عز وجل– لا مِنْ أحد غيره، ثم وُجِّه الخطاب إليه مباشـــرة عن طريق(**ك**) الخطاب التي وجدت في آيات السورة جميعها.

وأزيد فأقول إن كثرة المؤكدات في الجمل الخبرية التي اشـــتملت عليها الســـورة لا يُشَـير إلى إنكار أو شـك في وقوع تلك المِنَن، إنما جيء به لمزيد طمأنينة وسكون نفس، يؤكد هذا أن سورة الكوثر هي السورة الأخيرة التي خُتِمَت بها العطايا الربانية للنبي الكريم؛ فقد وعده ربه في سورة الضحى بأنه سوف يعطيه حتى الرضا، وأخبره

(١) العزف على أنوار الذكر، /١٧٢.

في القلم أن له أجرًا غير ممنون دون تحديد لهذا الأجر، وفي الشـــرح أظهر له بعض تلك المنن، وهي: شرح الصدر، ووضع الوزر، ورفع الذكر، ثم كان العطاء الأوفر والأكبر في سورة الكوثر؛ فأُلْقِيَ إليه بجمل خبرية مؤكدة قوية تناسب وفرة العطاء وكثرته، وتناسب قوة المُعْطِي، وتناسب رفعة شأن المخاطَبْ ومكانته صلى الله عليه وسلم.

* * *

المطلب الخامس: تناسب المطلع مع المقصد والخاتمة

أولا: تناسب المطلع مع المقصد:

المطلع: هو الجملة الأولى- اســـمية كانت أو فعلية، وتوابعها من عطف البيان والنســق والبدل وغير ذلك في صـــدر كل ســـورة من ســـور الذكر الحكيم، ويختلف مطلع السورة قصرًا وطولًا حسبما جاء عليه تركيب الجملة الأولى وتوابعها، وقصار السور يشبه أن تكون جملة واحدة إلا أنك تستطيع أن تعد الجملة الأولى مطلعا للتوابع المذكورة في الســـور بعد(١)، ويذكر علماء البلاغة أن أحســـن الابتداءات ما ناسب المقصود، وأن جميع فواتح السور وخواتمها واردة على أحسن وجوه البلاغة وأكملها.

كما " أجمع البلاغيون والنقاد على أن فواتح سور القرآن الكريم بَلَغَتْ أعْلَى درجات البلاغة، فجاءت فاتحة كل سورة في غاية التلاؤم والتناسب مع ما تتضمنه السورة من أحكام وعظات وقصص وأمثال" (٢).

(١) ينظر: علاقة المطالع بالمقاصـــد في القرآن الكريم – دراســـة بلاغية نظرية تطبيقية،أ. د: إبراهيم الهدهد، مكتبة الإيمان، ط١، ١٤٢٣هـ، ٢٠١١م، /٥٩٩ وما بعدها.

(٢) دراسات منهجية في علم البديع، د: الشحات محمد أبو ستيت، دار خفاجي للطباعة والنشر، ط١، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م، / ١١٨ .

وبـالنظر والتـدبر لمحـاولـة تلمس علاقـة مطلع الكوثر ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١﴾ بمقصـدها، أقول: إن مقصـد السـورة الكريمة هو الانتصـار للنبي الكريم وتبشـيره بعطاء الله الكوثر الذي لا حَدَّ له، ومِنَنِه الجليلة، وفضـله الواسـع عليه في الدنيا والآخرة، وقد جاء مطلع السـورة الكريمة واضـحًا ومبشـرًا للرسـول الكريم بهذا العطاء؛ فجاء بلفظ العطاء تصـريحا، وصـرَّح أيضـا بلفظ الكوثر الذي معناه: كل خير يمكن أن يكون، ولم يكتفِ بذلك بل سـاق الكلام مؤكدا بمؤكدات عدة؛ تطمينًا لقلب نبيه، وتسـلية عنه، ثم زاد فخَصَّـصَ العطاء له بـ **(كاف)** الخطاب، وكل ذلك لمزيد بعث السـكينة والطمأنية في قلب النبي –صـلى الله عليه وسلم–؛ فجاء المطلع صريحًا خاليًا من أساليب البيان–مثل التشبيه أو الاستعارة– الذي يعتمد الخيال؛ ليتلاءم مع قوة الموقف.

هذا، وقد وردت لفظة ﴿ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ التي حَمَلت السـورة اسـمها في فاتحة السورة:﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١﴾، ثم إنها وردت في سياق جملة خبرية اسمية تحمل من القوة ما يحمله المتحدث وهو الله–تعالى، وأيضـا قوة المخاطب وهو الرسـول الكريم، ثم قوة العطاء، وقوة المُعْطَى وهو النهر الكوثر ذو الخير الكثير للنبي الكريم ولأمته يوم القيامة؛ ومثل ورود العنوان في فاتحة السـورة قمة البلاغة فـ" من البلاغة حُسْـن الابتداء، وهو أن يتأنق في أول الكلام؛ لأنه أول ما يقرع السـمع؛ فَإِنْ كَانَ مُحَرَّرًا أَقْبَلَ السَّـامِعُ عَلَى الْكَلَامِ وَوَعَاهُ وَإِلَّا أَعْرَضَ عنه ولو كَانَ الْبَاقِي فِي نِهَايَةِ الْحُسْـنِ " [1]، كما أنه يعكس المكانة الرفيعة للرسـول عند الله– تعالى– بمنحه نهر الكوثر في الجنة، أو منحه كل خير يمكن أن يكون، ومن ثم يمكن القول: إن المطلع أنبأ عن المقصـد بصـورة قوية صـريحة مباشـرة؛ ليتمكن المقصود في الذهن والنفس بمجرد قراءة المطلع.

* * *

(١) الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، (٣/٣٦٣) .

ثانيًا: تناسب المطلع مع الخاتمة:

وقد تنبه العلماء لهذا اللون من التناسب وأداروه على كافة سور القرآن الكريم خاصة الطوال منها، وأفرد السيوطي له كتابا سمَّاه: **(مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع)**، وجاء في مقدمة التحقيق لهذا الكتاب قوله: "وهناك تناسب آخر عجيب في القرآن الكريم، وهو مايُرَى من التآلف والتعانق بين مطلع السورة وختامها في جمهور سور القرآن تآلفًا وتعانقًا يأخذ بالألباب ويُنْبِئ عن سبيل من سبل الإعجاز البياني للقرآن " [(١)] .

وبالنظر في مطلع ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١﴾، وخاتمة ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ۝٣﴾ سورة الكوثر تبين أن بينهما تناسبًا من عدة جهات مختلفة؛ فبينهما تناسب دلالي، وتناسب صوتي، وتناسب بلاغي، وبيان ذلك تفصيلا كالآتي:

أ- **التناسب الدلالي بين المطلع والخاتمة:** على المستوى الدلالي ارتبطت لفظة ﴿ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ التي تعني: الخير الكثير دلاليا بعلاقة تقابلية مع لفظة ﴿ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ التي تعني: " المنقطع من الخير أو المنقطع عنه الخير.

وبيان ذلك أن السورة بدأت بالعطاء الكثير وهو ﴿ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ وهذه الصيغة (فوعل) جاءت معرفة بالألف الدالة على الكثرة الشاملة من غير حد للعطاء الإلهي لرسوله، كما جاءت الكلمة من غير موصوف لتكون عامة، وهذا يدل على الكثرة المطلقة، فلم تكن الكثرة مقيدة بموصوف كفئة كثيرة أو ذكرا كثيرا .

وقد ناسب هذا المطلع بمعناه الواسع المطلق كلمة﴿ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ وهو المقطوع؛ لأن الأبتر مأخوذ من البتر، وهو في اللغة يعني من لا عقب له[(٢)]، ولا يخفى أن

(١) مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع، جلال الدين السيوطي، قرأه د/ عبد المحسن بن عبد العزيز العسكر،/ ١٤٠.

(٢) لسان العرب، (بتر).

وضع ﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾ في مقابل ﴿ٱلْأَبْتَرُ﴾ يدل على أن مناسبة لطيفة بَيَّنَت مقصدية السورة وهدفها في إبطال قولهم بأن النبي صلى الله عليه وسلم أبتر من جهة، وبين بشارته بالكوثر والخير الذي ينتظره من جهة أخرى.

على أن هذا التقابل بين ﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾ و﴿ٱلْأَبْتَرُ﴾ يُبرِز المعنى ويُقوّيه، علاوة على مافيه من سجعٌ مُؤثِّر يمكن المعنى في النفس فضل تمكن.

ـ ومن التناسب الدلالي بين المطلع والختام: أن السورة ذات موضوع واحد؛ فختامها يماثل مطلعها؛ لأنها تعدد مِنَن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي المطلع ذَكَر سبحانه وتعالى من تلك المِنَن إعطائه الكوثر ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾، ثم ختم السورة بذِكْر منة أخرى أيضا ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ ، وهي أن مبغضه الذي تَقَوَّلَ عليه هو الأبتر المقطوع ذكره وأثره، وأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فحسبه من ذكر أثره اقتران اسمه باسم الله عز وجل في كل أذان وصلاة في جميع بقاع الأرض؛ " فالآية الأخيرة النتيجة؛ لأن من الكوثر علو أمره وأمر محبيه وأتباعه في ملكوت السماء والأرض ونهر الجنة وسفول شأن عدوه فيهما؛ فقد التف كما ترى مفصلها بموصلها، وعرف آخرها من أولها" [1]، ومن ثم يمكن القول: إن بين المطلع والختام تناسب من حيث كونهما عطاءين وبشارتين للنبي صلى الله عليه وسلم.

ب- التناسب الصوتي بين المطلع والختام:

من التناسب الصوتي بين المطلع والختام: اتحاد صفات حروف قاصلة المطلع (الكوثر) مع صفات حروف فاصلة الختام (الأبتر)، وذلك بالتقابل

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، (٢٩٢/٢٢) .

بينهما[١]؛ فبالنظر إلى نهاية المطلع نجده كالآتي: **(ك، و، ث، ر)**، وختام الآية الأخيرة نجده كالآتي: **(أ، ب، ت، ر)**؛ وعند التدقيق نجد أن**(الكاف)** في الآية الأولى تقابل **(الهمزة)** في الآية الأخيرة، وكل منهما يشتركان في ثلاثة صفات، هي: الشدة، والاستفال، والانفتاح.

و**(الواو)** في الآية الأولى تقابل **(الباء)** في الآية الأخيرة، وقد تقاربا في المخرج؛ فالواو تخرج من الشفتين بانطباقهما، والواو تخرج من الشفتين أيضا لكن بانضمامهما، إضافة إلى الاتحاد في الصفات؛ فقد اتفقا في ثلاث صفات هي: الجهر، والاستفال، والانفتاح.

ثم نجد **(الثاء)** في الآية الأولى تقابل **(التاء)** في الآية الأخيرة، وقد اقتربا في المخرج؛ فالثاء تخرج من طرف اللسان مع أطراف الثنايا العليا، والتاء تخرج من طرف اللسان مع أصول الثنايا العليا، واتفقا في ثلاثة صفات هي: الهمس، والاستفال، والانفتاح.

ولا غرو في هذا التناسب العجيب؛ ذلك لأن المطلع يتفق مع الختام في كون كل منهما منة جليلة وعطاء وافر مِنَ الله عز وجل لنبيه، ولئن جاءت المنن مختلفة ومتنوعة إلا أن طرائق التعبير عنها واحدة؛ فتناسبت أصوات الحروف المُعَبَّر بها عنهما؛ لتؤكد أن جميع تلك المِنَنِ من عند الله صاحب النعم الوافرة، والعطاء الزاخر؛ فسبحان منزل هذا الكتاب الذي أحكمت آياته .

ومن التناسب الصوتي بين المطلع والختام: أن جاء الحرف المجاور للراء في فاصلة المطلع والختام من الحروف المهموسة؛ ففي المطلع نجد الفاصلة ﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾ وقد تجاورت **(الثاء)** مع الراء، **والثاء** حرف من حروف

(١) أعني بالتقابل هنا: أن صفات الحرف الأول في فاصلة المطلع تتحد مع صفات الحرف الأول في فاصلة الختام، وصفات الحرف الثاني في المطلع تتحد مع صفات الحرف الثاني في الختام، وصفات الحرف الثالث في المطلع تتحد في صفات الحرف الثالث في الختام.

الهمس، ثم بالنظر إلى فاصـــلة الختام ﴿ٱلْأَبْتَرُ﴾ نجد أن حرف (**التاء**) المجاور لحرف الراء من حروف الهمس أيضا[1]، وقد تلاءمت هذه الأصوات المهموسة مع صوت الراء؛ فجاءت الأصوات المصاحبة لصوت الراء في كل من المطلع والختام بعيدة المخرج عن الراء نفســـه، لا شـــديدة في الثقل ولا خفيفة، لكنها متلائمة في الصفة وهي الهمس.

ولعل الهمس يتناسب مع حالة الهدوء والسكينة والطمأنينة التي انتهى إليها النبي الكريم–صلى الله عليه وسلم– بعد إنزال تلك السورة الكريمة التي بشرته بهذه المنن الجليلة، وأخبرته بتلك الأمور الغيبية التي هي بمنزلة وعد متحقق الوقوع من الله –عز وجل–.

ـ من التناســـب الصـــوتي بين المطلع والختام: ارتباط العنوان(الكوثر) صوتيًا داخل السورة بصوت مفردة نهاية الختام[2]؛ فصوتيًا اشتركت ﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾ التي تعد فاصـلة المطلع، مع المفردة ﴿ٱلْأَبْتَرُ﴾ التي تعد نهاية الختام في صـوت الراء؛ مما قَدَّم رنة صـوتية خاصـة، خاصـة وأن الآيتين متماثلتان أو متقاربتان من حيث الطول.

ج ـ التناسب البلاغي بين المطلع والختام [3]:

أ–من التناســـب البلاغي بين المطلع والختام: أن جاء كل منهما بالجملة الخبريـة الاســـمية ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾، و﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ

(١) جدير بالذكر أن فاصلة الآية الثانية من السورة أتى فيها الحرف المُجَاوِر للراء من الحروف المهموســـة أيضـــا؛ فبالنظر إلى قوله تعالى: **(وانحر)** يتبين أن الحاء المُجَاوِر للراء من حروف الهمس، ولعل هذا يعد تناسبا صوتيا بين الآيات الثلاثة وليس بين المطلع والختام فحسب.

(٢) وقد ارتبط هذا أيضًـــا بالآية الثانية؛ لأن ختامها جاء بمفردة(الأبتر)، وقد ارتبطت صـــوتيا معهما أيضا بحرف الراء.

(٣) يمكن تسمية هذا التناسب بمسمى: (التناغي في الأحوال البلاغية أو التناغي في التراكيب).

﴿٣﴾﴾، وجاءت كل منهما مؤكدة، كما اشتملت كل منهما على ضمير الخطاب (ك).

المتأمل لنظم السورة الكريمة يرى أنها جمعت بين الأسلوب الخبري والإنشائي بحسب ما يقتضيه المقام؛ **غير أن الأسلوب الخبري كان الأبرز في السورة؛ فقد جاء في المطلع والختام.**

والإعراب بالمطلع والختام في سورة خبرية اسمية جاء متلائما متناسبا مع السياق والمقام؛ ذلك لأن كلا من المطلع والختام بشرى ومنة جليلة، وعطاء من رب العزة للنبي محمد صلى الله عليه وسلم؛ ففي المطلع عطاء الكوثر الذي لا يحده حد، وفي الختام عطاء الذكر الحسن وبتر أعدائه ومبغضيه، وكلاهما عطاء عظيم؛ فناسب ذلك الإتيان بالأسلوب الخبري ليدل على عظمة هذا العطاء، علاوة على أن الأسلوب الخبري هو الذي يتناغم في هدوء نبرته مع مقتضى حال النبي صلى الله عليه وسلم؛ فقد اطمأنت نفسه وقرَّت عينه بهذه العطاءات وتلك المنن؛ فغلب على نفسه صلى الله عليه وسلم طابع الهدوء والسكينة، وتلاشت مشاعر الانفعال وَوَثَبَات الوجدان، ومن ثم كان الأسلوب الخبري هو الأليق والأقرب بالسياق.

ثم جاء الختام أيضا بالجملة الخبرية الاسمية ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾، وفيه من المؤكدات مايجعله قويًّا ذا معنى مكين، ووقع مؤثر على المتلقي؛ فقد أفاد ضمير الفصل الحصر ونفي البتر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وإثباته للشانئ المبغض؛ ولذا كان الأنسب أن يساق في جملة خبرية اسمية مؤكدة.

على أن الإعجاز تجلى في انتقاء الجملة المناسبة للأسلوب الخبري؛ فقد جاء المطلع والختام جملة اسمية لتدل على الثبوت والدوام؛ فقال: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾﴾، وقال: و﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾؛ ليؤكد أن تلك العطاءات ملازمة وثابتة له صلى الله عليه وسلم.

ثم يأتي الأسلوب الإنشائي يتوسط السورة الكريمة ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ ﴾ وصورته فعل الأمر الذي يحمل معنى الحث، واستخدام النظم القرآني هنا للجملة الفعلية مُلائِم للسياق، فالموقف هنا يُنْبِئ عن شعور بالراحة النفسية التي تخف منها حركة الزمن، وتدور معها في عجلته؛ فقد وعد الله تعالى نبيه بالعطاء في المطلع قائلا: ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ ﴾ وكان العطاء مؤكدا ومتحقق الوقوع بدلالة الفعل الماضي ﴿ أَعْطَيْنَٰكَ ﴾، وهذا التأكيد على العطاء ولَّد لدى النبي صلى الله عليه وسلم شعورًا بالراحة النفسية والطمأنينة وبث السكينة؛ فجاءت صيغ الزمن ﴿ فَصَلِّ ﴾، ﴿ وَٱنْحَرْ ﴾ لتجسد الحركة الدالة على شكر هذه النعم والمنن وتدل على تلاحقها وتتابعها واستمرارها .

ومن ثم يمكن القول: إن انتقاء الجملة في السورة الكريمة خبرية كانت أو إنشائية، اسمية كانت أو فعلية في السورة الكريمة من تمام التناسب بين الأسلوب والمعنى المراد .

من التناسب البلاغي بين المطلع والختام: جاء المطلع بالتوكيد بـ(**إن**) والجملة الاسمية، وضمير الخطاب (**الكاف**) في ﴿ أَعْطَيْنَٰكَ ﴾ (أعطيناك)، وجاء الختام أيضا بالتوكيد بـ﴿ إِنَّ ﴾، وضمير الخطاب (**الكاف**) في ﴿ شَانِئَكَ ﴾، وضمير الفصل ﴿ هُوَ ﴾، وقد بَيَّنْتُ سابقًا أن هذا التوكيد من تمام تناسب الأساليب مع السياق والمراد(١).

ـ من التناسب البلاغي بين المطلع والختام: مجيء ﴿ ٱلْكَوْثَرَ ﴾ معرفة بالألف واللام إما العهدية أو الجنسية كما ذكر المفسرون؛ فالكلمة جامعة مانعة تشمل جنس كل خير يمكن أن يكون، ثم جاء في الختام مفردة ﴿ ٱلْأَبْتَرُ ﴾ معرفة

(١) ينظر: /٥٠، ٥١ من البحث .

بالألف واللام وإن كان الأصل في خبر المبتدأ أن يكون نكرة؛ لكنه عُرِّفَ ليتم للشانئ البتر الكامل الذي لا يشوبه أي رحمة أو شفقة.

ـ من التناسب البلاغي بين الآيات: اشتمال الآيات الثلاث على ضمير الخطاب **(الكاف)**، ﴿ أَعْطَيْنَاكَ ﴾ في المطلع، و﴿لِرَبِّكَ ﴾ في الوسط، ﴿شَانِئَكَ ﴾ في الختام، وهذا التأكيد على ضمير الكاف في الآيات الثلاثة في السورة بمنزلة أداة ربط وجذب جذبت النبي صلى الله عليه وسلم قلبا وقالبا، ونشرت صداه في كل آية لتربط على قلبه وتعطيه زخمًا معنويًا يفوق أضعاف ما دخله من الألم.

وبعد هذا العرض للعلاقة بين مطلع السورة الكريمة وخاتمتها، وبيان كيف ارتبط كل منهما بالآخر ارتباطًا يؤكد إعجاز هذا النظم الكريم، أزيد فأذكر ما ذكره الشيخ محمد عبد الله دراز –رحمه الله–؛ حيث يقول مُبَينا أن من أدق صور إعجاز القرآن الكريم هذا التناسب العجيب: " لعمري لئن كانت للقرآن في بلاغة تعبيره معجزات، وفي أساليب ترتيبه معجزات، وفي نبوءاته الصادقة معجزات، وفي تشريعاته الخالدة معجزات، وفي كل ما استخدم من حقائق العلوم النفسية والكونية معجزات ومعجزات، لعمري إنه في ترتيب آيه على هذا الوجه لهو معجزة المعجزات" [1]، وهذا ما وضح جليًّا في السورة الكريمة، وينسحب ذلك على كل سور القرآن الكريم.

* * *

(١) النبأ العظيم– نظرات جديدة في القرآن الكريم، د: محمد عبد الله دراز، /٢١١ .

المبحث الثاني

التناسب في سياق السورة الخارجي،

ويشمل:

المطلب الأول: التناسب بين سورة الكوثر وسورة الماعون .

المطلب الثاني: التناسب بين سورة الكوثر وسورة الكافرون .

المطلب الثالث: تناسب الكوثر مع القلم والضحى والشرح .

المطلب الأول: التناسب بين سورة الكوثر وسورة الماعون

سُبقت سورة الكوثر بسورة الماعون في المصحف الشريف، وقد ذكر علماء التفسير أن سورتي الماعون والكوثر متناسبتان فيما بينهما في الهدف؛ إذ إن سورة الكوثر كالمقابلة لسورة الماعون.

فسورة (الكوثر) سورة مدنية على الأرجح يمتد فيها المعنى المُنْساب من سورة (الماعون) امتدادًا؛ فقد تقابلت المعاني بين السورتين؛ فما وُجِدَ في الماعون أتى مقابله في سورة الكوثر؛ فكان التناسب بينهما بالمقابلة والتضاد، فما ذُكر في سورة الكوثر من أجلّ ما أفاض الله به على نبيه مِنَ النِعَم.

وبين السورتين مقابلة في المعاني أدَّت إلى الترابط بينهما؛ حيث اشتملت سورة الماعون على مساوئ أخلاق أربعة، وحذَّرت منها لشناعتها وسوء عاقبة مرتكبها، فقد ذكرت أوصاف أربعة للمنافقين هي: **البخل** في قوله: ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ ﴾ [الماعون: ٣]، **وترك الصلاة** في قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ﴾، **والمراءاة في الصلاة** في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ ﴾، **والمنع من الزكاة** في قوله تعالى: ﴿ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾ ﴾، ثم جاءت سورة الكوثر مفتتحة بذكر الخير الكوثر، مبينة ماأعطاه الله سبحانه وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم، واشتملت سورة الكوثر على أربع صفات تقابل الأربعة السابقة المذكورة في الماعون؛ **فكانت الكوثر كالمقابلة للماعون**، ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ ﴾، ﴿ فَصَلِّ ﴾، ﴿ لِرَبِّكَ ﴾، ﴿ وَٱنْحَرْ ﴾ وهي مرتبة كالسورة المتقدمة في الأوصاف؛ إذ البخل والمنع في سورة الماعون يقابله الجود والعطاء في سورة الكوثر ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ ﴾، وترك الصلاة في سورة الماعون يقابله الأمر بالصلاة في سورة الكوثر في قوله تعالى: ﴿ فَصَلِّ ﴾، والمراءاة في الصلاة في سورة الماعون يقابله قوله تعالى في سورة الكوثر: ﴿ لِرَبِّكَ ﴾؛ إذ خص الله

تعالى العبادة خالصة لوجهه دون رياء، ومنع الزكاة في سورة الماعون يقابله قوله تعالى في سورة الكوثر: ﴿وَٱنْحَرْ﴾[1]، ثم ختم السورة بقوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ أي المنافق الذي يأتي بهذه الأفعال القبيحة المذكورة في تلك السورة سيموت ولا يبقى من ذكره أثر، وأما أنت يانبي الله فسوف يبقى لك في الدنيا الذكر الجميل وفي الآخرة الثواب الجزيل .

قال الإمام الرازي في بيان مناسبة هذه السورة لِمَا قبلها: " اعلم أن هذه السورة على اختصارها فيها لطائف: إحداها: أن هذه السورة كالمقابلة للسورة المتقدمة، وذلك لأن السورة المتقدمة وصف الله تعالى المنافق بأربعة أمور: أولها: البخل.... الثاني: ترك الصلاة ...الثالث: المراءاة في الصلاة... الرابع: المنع من الزكاة .. فذكر في هذه السورة في مقابلة تلك الصفات الأربع صفات أربع؛ فذكر **مقابل البخل** قوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾، وذكر في مقابلة: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾ قوله: ﴿فَصَلِّ﴾، وذكر في مقابلة: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦﴾ قوله: ﴿لِرَبِّكَ﴾، وذكر في مقابلة: ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾ قوله: ﴿وَٱنْحَرْ﴾، وأراد التصدق بلحم الأضاحي؛ فاعتبر هذه المناسبة العجيبة" [2].

وقال صاحب البحر المحيط: "ولما ذكر فيما قبلها وصف المنافق بالبخل وترك الصلاة والرياء ومنع الزكاة، قَابَل في هذه السورة البخل بـــ (إنا أعطيناك الكوثر)، والسهو في الصلاة بقوله:(فصل)، والرياء بقوله: (لربك)، ومنع الزكاة بقوله: (وانحر)، أراد به التصدق بلحم الأضاحي، فقابل أربعًا بأربع" [3].

---

(١) ينظر: تفسير الرازي، (٣٠٧/٣٢) ، والبحر المحيط، (٥٥٥/١٠) .

(٢) تفسير الرازي، (٣٠٧/٣٢)، وينظر: البحر المحيط، (٥١٩/٨)، وروح المعاني، (١٥/ ٤٧٨).

(٣) البحر المحيط في التفسير، (٥٥٥/١٠) .

وقيل في المناسبة بينهما أيضا: " إن موقع هذه السورة من التي قبلها كموقع ذكر النعمة بعد النقمة، والعطاء بعد السلب، والمستخلفين بعد المهلكين، وذلك أسلوب شائع في القرآن" (١) .

وبالنظر والتأمل يتبين أن ثمة مناسبة أخرى بين الكوثر والماعون؛ إذ إن افتتاح سورة الكوثر بقوله: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١﴾ له صلة بخاتمة سورة الماعون، وهو قوله تعالى:﴿ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ۝٧ ﴾؛ ذلك لأن منع الماعون فيه تقتير للعطاء بمنع ما يتداوله الناس في معاشهم؛ فبدئت سورة الكوثر بالعطاء الأكثر الذي لا يعد ولا يحصى؛ لأنه مِنَ الله سبحانه لنبيه؛ ولذلك ناسب افتتاح سورة الكوثر خاتمة سورة الماعون، يقول صاحب نظم الدرر:" لمَّا كانت سورة الدين(٢) بإفصاحها ناهية عن مساوىء الأخلاق، كانت بإفهامها داعية إلى مَعَالِي الشِيَم؛ فجاءت الكوثر لذلك، وكانت الدين قد ختمت بأبخل البخلاء وأدنى الخلائق: المنع تنفيرًا من البخل ومما جره من التكذيب؛ فابتدئت الكوثر بأجود الجود، العطاء لأشرف الخلائق؛ ترغيبًا فيه وندبًا إليه، فكان كأنه قيل: أنت يا خير الخلق غير متلبس بشيء مما نهت عنه تلك المختتمة بمنع الماعون" (٣).

هذا، ولقد حاول الفراهي أن يُبرز النظام الذي تنتظم به هذه السورة فأحسن وأجاد، يقول رحمه الله: " قد مرَّ في تفسير السورة السابقة أنها نزلت في الذين كَبُرَت خيانتهم في ولاية الكعبة لما أنهم أفسدوا الحج ومناسكه، وأبطلوا حقيقة الصلاة والنحر بإبطال التوحيد، والعدول علن مواساة المساكين؛ فباؤوا بالويل واللعنة، واستحقوا أن يسلبهم الله هذا الخير ويعطيه مَنْ يستحقه.... ثم جاءت سورة الكوثر تحمل البشرى إلى النبي وأصحابه، بأن الله قد اختارهم لهذا الشرف الأكبر،

---

(١) إمعان النظر في ترتيب الآي والسور، د: محمد عناية الله أسد سبحاني، دار عمار، (د.ت)،/١٣٩، نقلا عن تفسير سورة الكوثر، للفراهي، /٣.

(٢) يعني سورة الماعون.

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، (٢٢/ ٢٨٧).

وَمَنَّ عليهم بهذا الخير الكوثر، مع التنبيه إلى ما يتبع هذا العطاء من مسـؤولية كبيرة ضـخمة، وهي إحياء ما أماته المشـركون من معالم التوحيد الذي أسـس عليه هذا البيت العتيق؛ حيث قال تعالى: (إنا أعطيناك الكوثر ...إلخ السـورة) ....؛ فبهذه السورة بشر نبيه بأنه اصطفاه وأمته لولايته بيته المحرم ومسكن خليله وذريته التي يبارك بها الأمم ....، ولا شـك أن هذا العطاء هو الفوز الأكبر والخير الكوثر وهو الضمان للحوض الكوثر الذي يعطيه الله تعالى في الآخرة " [1].

* * *

(١) إمعان النظر في نظام الآي والسـور، د: محمد عناية الله أسـد سـبحاني،/ ١٣٨بتصـرف يسير.

المطلب الثاني: التناسب بين سورة الكوثر وسورة الكافرون

جاءت سورة الكافرون بعد سورة الكوثر في ترتيب المصحف الشريف، وبالنظر يتبين أن بين سورة الكوثر والكافرون تقابل بالتضاد؛ حيث إن النظم الكريم أثبت عبادة في سورة الكوثر، وهي: الصلاة، والنحر؛ شُكرًا لله-تعالى- على نعَمِه على النبي-صلى الله عليه وسلم-؛ فقال: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ ﴾، ثم في سورة الكافرون نفى عبادة؛ حيث نفى عن المصطفى-صلى الله عليه وسلم- عبادته لغير الله-تعالى-﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ ﴾؛ فصلاته لربه وحده ولا يعبد ما يعبدون كما فى عبادة الكفار لله تعالى: ﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ ﴾، وبذلك يكون في الكوثر أثبت عبادة، وفي الكافرون نفى عبادة، ومن ثم يكون بين السورتين تناسب بالتضاد، يقول الرازي رحمه الله تعالى: " وجه اتصالها بما قبلها: أنه تعالى لما قال: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ أمره أن يخاطب الكافرين بأنه لا يعبد إلا ربه، ولا يعبد ما يعبدون، وبالغ في ذلك فكرر، وانفصل منهم على أن لهم دينهم وله دينه" [(١)]، **ثم قال عند ربطه بين الكوثر والكافرون والنصر:** " ووجه آخر، وهو أنه لما أعطاه الكوثر، وهو الخير الكثير ناسب تحميله مشقاته وتكاليفه، فعقبها سبحانه وتعالى بمجاهدة الكفار والتبري منهم؛ فلما امتثل بذلك عقبه بالبشارة بالنصر والفتح، وإقبال الناس أفواجًا إلى دينه وأشار إلى دنو أجله فإنه ليس بعد الكمال إلا الزوال" [(٢)] .

ويقول د/ فاضل السامرائي: " أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم في سورة الكوثر بالصلاة لربه فقال له: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ ﴾، وأمره تعالى أن

---

(١) تناسق الدرر في تناسب السور، جلال الدين السيوطي، دراسة وتحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م،/ ١٤٥.

(٢) السابق، / ١٤٥، ١٤٦ .

يقول في أوائل سـورة الكافرون: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ ﴾؛ فهو يصلي لربه ويعبده ولا يعبد ما يعبدون[١].

هذا، وبعد عُمْق النظر في السورتين ومحاولة تلمس أوجه التناسب بينهما وقفت على الآتي: لما خُتمت سورة الكوثر بِردٍّ على أحد صناديد قريش خاصة وبعينه وهو أحد كفارهم، في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣ ﴾ افتُتحت هذه السورة بالردّ عليهم (الكافرين) عامة وعلى أقوالهم الباطلة في قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ ﴾؛ فكأن في الكوثر خطابًا خاصًا لأحدهم ببيان عاقبته وجزاء تطاوله على نبي الله الكريم، وفي الكافرون خطابًا لهم عامة ببيان ثبات النبي صلى الله عليه وسلم على دينه وبراءته مما يعبد قومه: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦ ﴾ ؛ فبعد أن خاطب فردهم، جاء في الكوثر مخاطبا جمعهم ليكون ذلك حجة عليهم إن آذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في دينه أو نفسه.

وأزيد فأقول: إن كل ما جاء بعد سورة الكوثر من سور إنما هي مرتبطة بها ومبينة لمضامينها، قال صاحب إمعان النظر: " ويبدو بعد التأمل في نظام هذه السورة كأن القرآن أكمل وختم بهذه السورة العظيمة، وأما السور التالية لها فهي تكملة لها، وتبيين لمحتوياتها " [٢] .

* * *

(١) التناسب بين السور في المفتتح والخواتيم، د/ فاضل صالح السامرائي، دار ابن كثير، ط١، ١٤٣٧هـ، ٢٠١٦ / ١٩٧

(٢) إمعان النظر في نظام الآي والسور، د: محمد عناية الله أسد سبحاني،/١٣٩، ١٤٠.

المطلب الثالث: التناسب بين سورة الكوثر، والقلم، والضحى، والشرح

سورة الكوثر تتحدث عن العطاء والمِنَن والنعم الربانية التي مَنَّ الله بها على نبيه، وَمِنْ ثَمَّ فإنها سورة العطاء ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ ﴾، ولكن نلاحظ أنها ليست السورة الوحيدة التي تتحدث عن هذا العطاء وتُبَشِّر به؛ فموضوع السورة يرتبط بموضوع سُوَر: القلم، والضحى، والشرح؛ حيث ذُكِرَ في السور السابقة الذكر نِعَمٌ سابغة مِنَ الله على رسوله–صلى الله عليه وسلم–؛ فقد ذُكِرَ الوعد بالعطاء في سورة القلم، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ۝٣ ﴾، وقال تعالى في سورة الضحى: ﴿ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ ﴾، وفي الشرح قال: ﴿ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ۝٤ ﴾، وفي سورة الكوثر، يقول تعالى: ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ ﴾.

وإذا تدبرنا هذه الآيات الأربعة وسورها يتجلى لنا التناسب بينها:

أولًا: ترتيب هذه السور الأربعة في المصحف هو نفس ترتيبها في النزول: القلم، ثم الضحى، ثم الشرح، ثم الكوثر.

ثانيًا: ترتيب العطاء في السُور الأربعة يتوافق مع ترتيب السور، ففي سورة القلم ذُكِر الوعد بالعطاء قائلًا: ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ۝٣ ﴾، ثم في سورة الضحى تَكَرَّر الوعد بالعطاء مؤكدا بمؤكدات عديدة، وزاد عليه الرضى، أي: سيعطيه إلى أن يبلغ الرضى: ﴿ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ ﴾، وفي الشرح أعطاه صورة من صور العطاء برفع ذكره، قائلًا: ﴿ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ۝٤ ﴾، وفي سورة الكوثر نَبَّهَ في مطلع السورة أنه أعطاه الخير الكوثر المتمثل فيما مضى وغيره، ثم أكَّدَ له رَفْع الذكر الذي ذَكَره سابقًا في سورة الشرح ببتر أعدائه صلى الله عليه وسلم وأعداء دينه؛ فختم العطاءات بقوله عز وجل: ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ۝٣ ﴾ .

هذا، وإذا كان ما سبق يُبَين لنا ارتباط سورة الكوثر بسورة القلم والضحى والشرح؛ **فإن السطور القادمة سأقف على علاقة سورة الكوثر بسورتي الضحى والشرح فقط؛** لارتباطهما الشديد بسورة الكوثر، وليس أفضل من كلام الإمام الرازي في هذا الشأن الذي نقله عنه الإمام السيوطي قائلًا: "رأيت الإمام فخر الدين الرازي ذكر في تفسيره كلامًا لطيفًا في مناسبات هذه السور؛ فقال في سورة الكوثر: هي

كالمتممة لما قبلها...؛ لأنه " تعالى جعل سورة الضحى في مدح النبي صلى الله عليه وسلم وتفصيل أحواله؛ فذكر في أولها ثلاثة أشياء تتعلق بنبوته: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥ ﴾ ، ثم ختمها بثلاثة أحوال من أحواله فيما يتعلق بالدنيا: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ ﴾، ثم ذكر في سورة ألم نشرح أنه شرفه بثلاثة أشياء: شرح الصدر، ووضع الوزر، ورفع الذكر[1]، ..... فلمَّا شرفه في هذه السور بهذه الوجوه العظيمة قال: ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١ ﴾ أي: هذه الفضائل المتكاثرة المذكورة في هذه السور، التي كل واحدة منها أعظم من ملك الدنيا بحذافيرها؛ فاشتغل أنت بعبادة ربك، إما بالنفس وهو قوله: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾، وإما بالمال، وهو قوله: ﴿ وَانْحَرْ ﴾، وإما بإرشاد العباد إلى الأصلح، وهو قوله: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ الآيات؛ فثبت أن هذه السورة كالمُتَممة لِمَا قبلها[2].

ومن ثم يمكن القول: إن سورة الكوثر جاءت واسطة العقد في نظامها؛ حيث إن كل نعيم ذُكِر في القرآن مِنْ فَاتِحَة الكتاب حتى سورة الكوثر قد خُتم بهذه النعمة السابغة؛ إذ " اضمحل في جانب نعمة الكوثر الذي أوتي كل ما ذكر الله تعالى في كتابه من نعيم أهل الدنيا، تمكن من تمكن منهم، وهذا أحد موجبات تأخير هذه السورة؛ فلم يقع بعدها ذكر شيء من نعيم الدنيا ولا ذكر أحد من المتنعمين بها، لانقضاء هذا الغرض وتمامه، وسورة الدين آخر ما تضمن الإشارة إلى شيء من ذلك" [3].

* * *

(١) تناسق الدرر في تناسب السور، السيوطي، / ١٤٨ .

(٢) تناسق الدرر في تناسب السور،/١٥٠، نقلًا عن الإمام الرازي.

(٣) البرهان في تناسب سور القرآن، أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي، تحقيق: محمد شعباني، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ١٤١٠ هـ ، ١٩٩٠م، /٣٨٠.

الخـــاتـمـــة

بعد هذه الجولة في رحاب هذه الســـورة العظيمة الجليلة التي لا تتجاوز الثلاث آيات، يتبين أنها اشتملت على جملة عظيمة من النتائج والفوائد، منها:

١-الامتنان على الرسـول-صـلى الله عليه وسـلم- في هذه السـورة جاء بالكوثر، وهو الخير من كل شـيء، وإن كان أعظمه وأشـمله الحوض المورود يوم القيامة؛ فقد امتازت المفردة بوفرة الدلالة مع تناســب جميع الدلالات مع مقصــد السورة الكريمة.

٢- مِنْ خِلال أوجه التناسب التي ظَهَرَت في السورة تبيَّن أن الله-سبحانه وتعالى- لو أنزل هذه السورة وحدها لكفى بها معجزة يتحدى بها أساطين البلاغة وأربابها؛ فكيف بما أنزل من القرآن كله؟

٣-امتازت سورة الكوثر بألفاظ قرآنية لم تَرِد إلا فيها؛ إذ تُعَد تلك الألفاظ من الفرائد القرآنية التي اختصت بالسورة الكريمة، مثل(**الكوثر**)، (**وانحر**) (**شانئك**)،(**الأبتر**)، فضلا عن بِنْية هذه الكلمات وما تحمله من دلالات، وفرائد تلك الألفاظ تشير إلى كون العطاء الوارد في تلك السورة، والنصر المؤزر للنبي الكريم فريدًا لا نظير له.

٤-حَاوَلَ البحث أن يُجَلِّي صُور التناسب المختلفة في نسيج السورة، وأثرها في الكشف عن دلالتها؛ فظهر أن التناسب احتضن المعاني، وتجَلَّى من خلاله بقوة التأثير في المتلقي؛ فهو بذلك جزء مهم مِنْ بناء السورة له أهدافه في التعبير.

٥- استهلت السورة بابتداء غاية في الحسن؛ إذ يناسب المقصود مناسبة تامة وأحسن الابتداءات ماناسب المقصود؛ إذ إن افتتاح السورة بتوكيد العطاء يُشْعِر بالطمأنينة، ويبعث على السكينة والهدوء النفسي.

٦-أسهمت الفنون البلاغية المختلفة في إيصال مقصد السورة بشكل عميق؛ إذ تحدثت عن العطاء الكوثر من خلال براعة المطلع وحسن الاستهلال بالتوكيد الجاري مجرى القسم، ثم الإتيان بضمير العظمة (**نا**)، ثم إيثار صيغة الماضي في

فعل العطاء **(أعطيناك)**؛ للإيحاء بتحقق هذا العطاء، وحين استلزم الوصف العدول عن الماضي إلى الأمر عبر به **(فصل، وانحر)**، إلى غير ذلك من الفنون البلاغية التي زخرت بها السورة، والتي تواشجت فيما بينها على نحو متناغم في بث مقاصد السورة وأهدافها؛ فتحقق التناغي في التراكيب مع المعنى والمقصد.

٧- بلغت دقة إيثار التعبير القرآني للألفاظ غاية في الوفاء بالمعنى، حتى على مستوى الحرف الذي تناسبت صفاته مع مقصد السورة، فضلًا عن دلالة المفردات ذاتها، وانتقاء صِيَغِها ورسمها الذي تناسب أتم تناسب مع مقصد السورة.

٨-ارتبط صوت الحروف بالدلالة؛ فتناسبت أصوات حروف السورة الكريمة مع مقصد السورة ومعانيها، وقد ظهر ذلك جليًّا في صوت فاصلة السورة الكريمة خاصة.

١٠- السورة مثال للبلاغة والإعجاز باشتمالها على المعاني الكثيرة من خلال الكلمات القليلة؛ فهي كوثر حق وحقيقة، يقول الإمام الرازي: " فهذه السورة جارية مجرى النكتة المختصرة القوية الوافية بإثبات جميع المقاصد؛ فكانت صغيرة في الصورة، كبيرة في المعنى" (١).

هذا، وإن من اليقين أن أعترف أن هذا البحث الموجز لا يمكن أن يَفِي بآية واحدة، بل ولفظة واحدة من السورة فضلًا عن السورة كاملة، ولكنها إشارات وإضاءات تفتح الباب جليًّا لمثل تلك الدراسات.

ولا أجد أعمق وأوجز مما ذكره الإمام الرازي-رحمه الله- في حديثه عن إعجاز السورة لأختم به؛ حيث قال بعدما ذَكَر جُملة من الفوائد: " ثم هذه السورة مع علو مطلعها، وتمام مقطعها، واتصافها بما هو طراز الأمر كله من مجيئها

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، (٣١٦/٣٢).

مشحونة بالنكت الجلائل، مكتنزة بالمحاسن غير القلائل؛ فهي خالية من تصنع من يتناول التنكيت، وتَعَمُّل مَنْ يتعاطى بحاجته التبكيت" (١).

وأستغفر الله العظيم إن زلَّ قلمِي، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

* * *

المصادر والمراجع

١- **الإبانة في اللغة العربية، سَلَمة بن مُسْلِم العَوْتبي الصُحاري**، تحقيق: د. عبد الكريم خليفة، د. نصرت عبد الرحمن، د. صلاح جرار، د. محمد حسن عواد، د. جاسر أبو صفية، وزارة التراث القومي والثقافة – مسقط – سلطنة عمان، ط١، ١٤٢٠ هـ ،١٩٩٩م.

٢- **الإتقان في علوم القرآن**، جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٤هـ، ١٩٧٤م .

٣-**إعجاز سورة الكوثر**، للإمام جار الله أبي القاسم الزمخشري، تحقيق: حامد الخفاف، دار البلاغة للطباعة والنشر، بيروت– لبنان، ط١، ١٤١١هـ، ١٩٩١م.

٤-**إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي– بيروت، ط٨، ١٤٢٥ هـ ، ٢٠٠٥ م .

٥-**إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم**، المؤلف: الحسين بن أحمد بن خالويه، أبو عبد الله، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٣٦٠هـ، ١٩٤١م .

٦- **الإمام البقاعي ومنهاجه في تأويل بلاغة القرآن**، د: محمود توفيق محمد سعد، مكتبة وهبة، ط١، ١٤٢٤هـ، /٢٣٢.

٧- **إمعان النظر في ترتيب الآي والسور**، د: محمد عناية الله أسد سبحاني، دار عمار (د.ت).

(١) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، الإمام: فخر الدين الرازي، تحقيق: د/ نصر الله حاجي مفتي أوغلي، دار صادر– بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٤م ، /٢٤١ .

٨- **أسـباب نزول القرآن**، أبو الحسـن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيســـابوري، تحقيق: كمال بســـيوني زغلول، دار الكتب العلمية- بيروت، ط١، ١٤١١ هـ .

٩- **الأصـــوات اللغويــة**، إبراهيم أنيس، مطبعـة الأنجلو المصـــريـة، ط٥ ، ١٩٧٥م،/٦٤.

١٠- **الأعلام**، خير الـدين بن محمود بن محمـد بن علي بن فـارس، الزركلي الدمشقي (المتوفى: ١٣٩٦هـ)، دار العلم للملايين، ط١٥- أيار/ مايو ٢٠٠٢م .

١١- **البحر المحيط في التفسير**، لأبي حيان، تحقيق: صـدقي محمد جميل، دار الفكر- بيروت، ١٤٢٠ هـ .

١٢- **بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع**، تأليف: علاء الدين، أبو بكر بن مسعود بن أحمد الكاساني الحنفي (المتوفى: ٥٨٧هـ)، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

١٣- **البرهان في تنـاســـب ســـور القرآن**، أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي، تحقيق: محمد شـعباني، وزارة الأوقاف والشـؤون الإسـلامية، المغرب، ١٤١٠ هـ ، ١٩٩٠م .

١٤- **البرهان في علوم القرآن**، الإمام الزركشـــي، تحقيق: محمد أبو الفضـــل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربي- عيسى البابي الحلبي وشركائه، ط١، ١٣٧٦هـ، ١٩٥٧م.

١٥- **بصـائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبـادى، تحقيق: محمد علي النجـار، المجلس الأعلى للشـــئون الإسلامية- لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.

١٦- **تـاج العروس من جواهر القـاموس**، الزَّبيـدي، تحقيق: مجموعـة من المحققين، دار الهداية.

تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٤١٣هـ ،١٩٩٣م .

١٧- **التحرير والتنوير= تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد**، محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الدار التونسية للنشر- تونس، ١٩٨٤هـ.

١٨- **تفسير البيضاوي= أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ط١، ١٤١٨هـ .

١٩- **تفسير الرازي= مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير**، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ .

٢٠- **تفسير الراغب الأصفهاني**، الراغب الأصفهاني، تحقيق ودراسة: د. محمد عبد العزيز بسيوني، كلية الآداب- جامعة طنطا، ط١، ١٤٢٠هـ ، ١٩٩٩م .

٢١- **تفسير الطبري=جامع البيان في تأويل القرآن**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ ،٢٠٠٠م.

٢٢- **تفسير القرطبي= الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية- القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ،١٩٦٤م .

٢٣- **التفسير الكبير**، لابن تيمية، تحقيق وتعليق: د/ عبد الرحمن عميرة، دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان .

٢٤-**تفسير الماوردي= النكت والعيون**، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية- بيروت-لبنان.

٢٥-**التناسب بين السور في المفتتح والخواتيم**، د/ فاضل صالح السامرائي، دار ابن كثير، ط١، ١٤٣٧هـ، ٢٠١٦ .

٢٦- **تناسق الدرر في تناسب السور**، جلال الدين السيوطي، دراسة وتحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

٢٧- **حاشية أحمد بن محمد الصاوي على تفسير الجلالين**، للإمامين العظيمين الجلالين:جلال الدين المحلى، والإمام السيوطي، راجع تصحصحه: فضيلة الشيخ: علي محمد الصباغ، دار الجيل، بيروت.

٢٨- **حاشية الشهاب علي تفسير البيضاوي=عنايه القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي**، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي، دار صادر- بيروت.

٢٩- **الخصائص**، أبو الفتح عثمان بن جني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٤.

٣٠- **دراسات منهجية في علم البديع**، د: الشحات محمد أبو ستيت، دار خفاجي للطباعة والنشر، ط١، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م .

٣١- **دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة**، أبو بكر البيهقي، دار الكتب العلمية- بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ.

٣٢- **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني= تفسير الألوسي**، تحقيق:علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية- بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

٣٣- **زاد المسير في علم التفسير**، ابن الجوزي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي- بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ .

٣٤- **سر صناعة الإعراب**، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط١، ١٤٢١هـ ، ٢٠٠٠م.

٣٥- **شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب**، ابن هشام، تحقيق: عبد الغني الدقر، الشركة المتحدة للتوزيع- سوريا.

٣٦- **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين- بيروت، ط٤، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

٣٧- **صحيح الإمام مسلم**، الإمام: مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، (د. ت) .

٣٨- **صحيح الإمام البخاري**، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ .

٣٩- **العزف على أنوار الذكر- معالم الطريق إلى فقه المعنى القرآني في سياق السورة**، د: محمود توفيق محمد سعد، مكتبة وهبة، ط١، ١٤٢٤هـ.

٤٠- **علاقة المطالع بالمقاصد في القرآن الكريم – دراسة بلاغية نظرية تطبيقية**، د: إبراهيم الهدهد مكتبة الإيمان ، ط١ ، ١٤٢٣هـ ، ٢٠١١م .

٤١-**عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ**، السمين الحلبي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٧هـ ، ١٩٩٦م.

٤٢- **فتح البيان في مقاصد القرآن**، صديق خان القِنَّوجي، قدّم له: عَبد الله بن إبراهيم الأنصَاري، المَكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، صَيدَا- بَيروت، ١٤١٢هـ ، ١٩٩٢م.

٤٣- **فتح القدير**، الإمام الشوكاني، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب-دمشق، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ .

٤٤- **الكامل في التاريخ**، ابن الأثير، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، ط١، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.

٤٥- **الكتاب**، سيبويه، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

٤٦- **كتاب العين**، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي، تحقيق: د. مهدي المخزومي، د: إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

٤٧- **الكشـــاف عن حقائق غوامض التنزيل= تفســـير الزمخشـــري**، دار الكتاب العربي – بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ .

٤٨- **لباب النقول في أسباب النزول**، جلال الدين السيوطي، ضبطه وصححه: أحمد عبد الشافي، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان.

٤٩- **لسان العرب**، الإمام ابن منظور، دار صادر- بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ .

٥٠- **المثل الســائر في أدب الكاتب والشــاعر**، ضــياء الدين بن الأثير، تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع- الفجالة- القاهرة.

٥١- **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز= تفسير بن عطية**، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية- بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ .

٥٢- **مراصد المطالع في تناسب المقاطع- بحث في العلاقات بين مطالع سور القرآن وخواتيمها**، جلال الدين الســيوطي، قرأه وتممه: د/ عبد المحســن بن عبد العزيز العســكر، مكتبة دار المنهاج للنشــر والتوزيع- الرياض- المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢٦هـ .

٥٣- **المستدرك على الصحيحين**، المؤلف: أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضــبي الطهماني النيســابوري المعروف بابن البيع، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤١١هـ ،١٩٩٠ م.

٥٤- **معالم التنزيل في تفســـير القرآن= تفســـير البغوي**، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي-بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ .

٥٥- **معترك الأقران**، جلال الدين الســيوطي، دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان، ط١، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

٥٦- **معجم علم الأصوات**، د: محمد علي الخولي، ط١، ١٤٠٢هـ،١٩٨٢م .

٥٧- **معجم الفروق اللغوية= الفروق اللغوية بترتيب وزيادة**، أبو هلال العسكري، تحقيق: الشيخ بيت الله بيات، ومؤسسة النشر الإسلامي، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بـ «قم»، ط١، ١٤١٢هـ.

٥٨- **معجم مقاييس اللغة**، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ ، ١٩٧٩م.

٥٩- **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**، جمال الدين اين هشام، تحقيق: د. مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله، دار الفكر- دمشق، ط٦.

٦٠- **المفردات في غريب القرآن**، الراغب الأصفهانى، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية- دمشق بيروت، ط١ ، ١٤١٢ هـ .

٦١- **مناهج البحث في اللغة**، د: تمام حسان، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٠م.

٦٢- **من بلاغة القرآن**، أحمد أحمد عبد الله البيلي البدوي، نهضه مصر- القاهرة،٢٠٠٥م.

٦٣- **النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم**، محمد بن عبد الله دراز، اعتنى به: أحمد مصطفى فضلية، قدم له: أ. د/ عبد العظيم إبراهيم المطعني، دار القلم للنشر والتوزيع، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.

٦٤- **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، الإمام البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة .

٦٥- **نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز**، الإمام: فخر الدين الرازي، تحقيق: د/ نصر الله حاجي مفتي أوغلي، دار صادر- بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٤م .

٦٦- **الوسيط في تفسير القرآن المجيد**، الواحدي، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، د: أحمد محمد صيرة، د: أحمد عبد الغني الجمل، د: عبد الرحمن عويس، قدمه وقرظه: أ.د/عبد الحي الفرماوي، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط١، ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.